عباس محمود العقاد



جحا

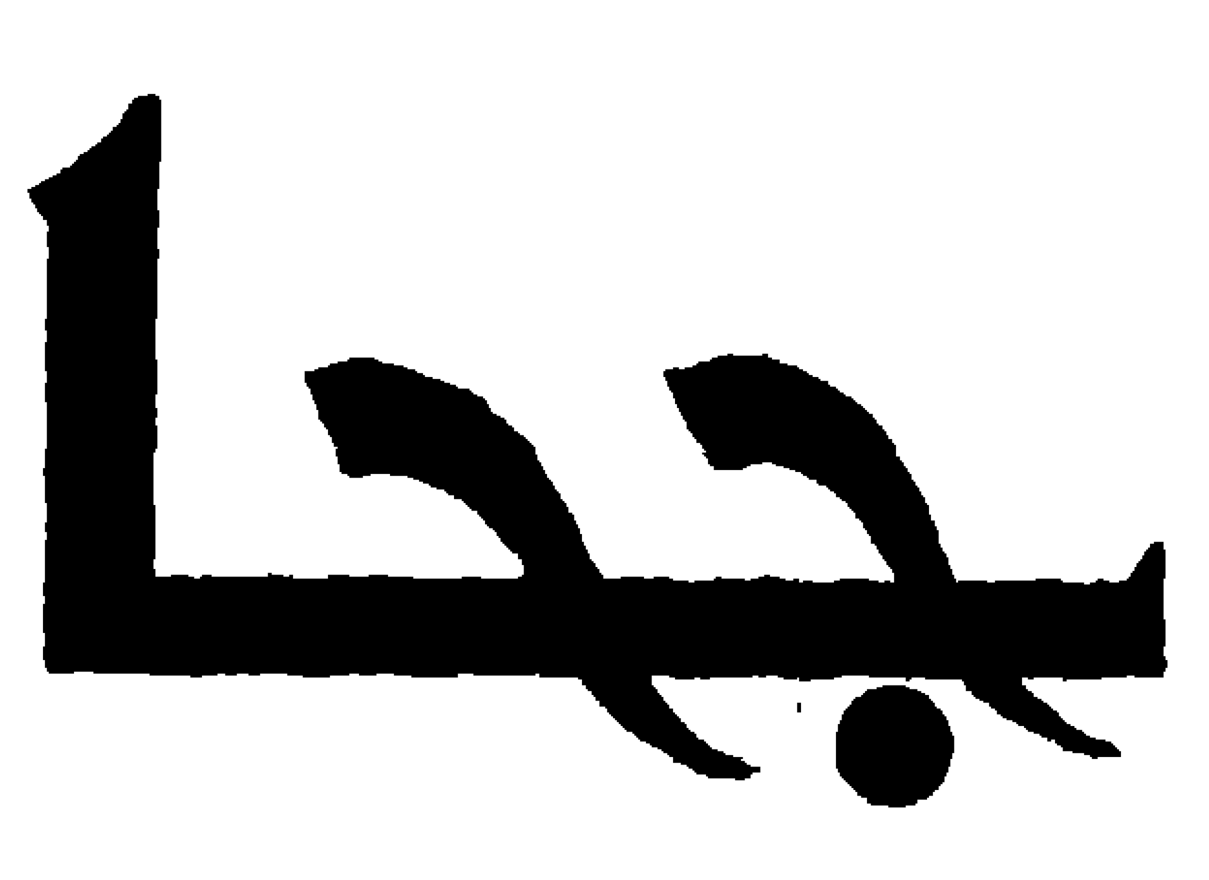
الضاحك المضحك






جحا
الضاحك المضحك

عباس محمود العقاد



الضاحك المضحك

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

تمهيد

الكلمة والضحكة

الكلمة أكبر الفتوح الانسانية في عالم الكشف والاختراع ، لو لم يخترعهـا الانسان لوجب أن يخترع ما يساويهـا وينوب عنها ، لانه لا حياة له بغير التفاهم بينه وبـين أبناء نوعه ، ولا تفاهم على شيء من الأشياء بغير الكلمة أو ما يدل دلالتها ..

أنقول على شيء من الأشياء وكفى ؟

كلا .. بل نعمم القول على الأشياء وما ليس بشيء من الأشياء ، ونضرب المثل بيوم الاربعاء أو يوم الخميس أو يوم من الأيام في الشهر الأول من السنة الحاضرة .

ما هو ذلك اليـوم ؟ وما هو ذلك الشهر ؟ وما هـي تلك السنة ؟

يصعب علينا أن نسميها شيئـا من الأشياء يتأتى لنا أن نشير اليه كما نشير الى كل شيء نراه أو نحصره :

مسافة من الفلك تدور فيها الأرض حول نفسها ، وليست هي بالمسافة الثابتـــة التي تعود الى مكانها في مجرى المنظومـة الشمسية من أجواز الفضاء ! ..

شيء أو لا شيء ..

ولكنه على ذلك اسم لا بد منه لمن يذكر التاريخ ، ولمن يعمل في ساعته الحاضرة ، ولمن ينظر الى المستقبل ويقرر له المواعيد والمواقيت .

والاسم في اللغة هو الذي استطـاع أن يصطاد للعقل هذه المسافة المجهولة من الفضاء الأبدي ويعطيها الدلالة التي لا غنى عنها .

ولكنها ليست بالدلالة الوحيدة التي لا غنى عنها .

كل ما تدل عليه اللغـة لا غنى عنه للانسان ، ومنه هـذه المحسوسات التي نلمسها ونراها بالعـــين ، كالطريق والمركبة والكرسي والاناء . فاننا نجرب الاستغناء عن اللغة يوما ونحاول أن نتفاهم عليها وهي غائبة عنها لا نستطيع أن نشير اليها .

لا سبيل ! ..

وصدق القرآن الكريم : كل علم هو علم الاسماء ، والله علم آدم الأسماء كلها ، لأنها هي العلم الانساني من مبدئه الى منتهـاه .

الا انه علم الانسان !

وكل علم للانسان يعرض له النقص من بعض نواحيه ، فاذا قال لنفسه : لا بد لي من اللغة ! فلا ينس أن يقول لنفسه : نعم.

وحذار من هذه اللغة ، فان النفع منها للعقل عظيم جد عظيم ، ولكن الضرر منها غير قليل وغير مأمون ..

من منافعها انهـا تحصر المارد المنطـلق فتحبسه في القمقم المرصود مطيعا حيث يراد ..

ومن أضرارها أنها تحبس المردة الكثيرة في قمقم واحد ، فتنطلق مرة واحدة حيث يراد واحد منها ، وتنحبس مرة واحدة حيث نريد أن نطلق منها هذا وندع منها ذلك .

عودتنا اللغة أن نحسب كل آسم علماً على شيء واحـد ، وكثيرا ما يكون هذا الاسم كالقمقم الذي يحتوي فيه عشرات المردة بعلامة واحدة ، وما من شبه بينها غير تلك العلامـة لضرورة التمييز والتقسيم .

تعودنا أن نسأل : ما العـلم ؟ ما الفهم ؟ ما الحـس ؟ ما الضمير ؟

وتعودنا أن نسأل : كيف نعلم ؟ وما وسيلة الفهم ؟ ولمـاذا نحس ؟ وما بالنا نصغي للضمير ؟

تعودنا ذلك ، وتعودنا أن نجيب بجواب واحد ، كأننا نسأل في جميع هذه الأحوال عن شيء واحد .

وما نسأل في الحقيقة الا عن أشياء كثيرة تنبيء عنها كلمة واحدة .

ما نسأل في الحقيقة الا عن عشرين مارداً أو أكثر من عشرين ، يجمعهم القمقم الواحد الذي نشير اليه .

وفي سياق هذه الرسالة ــ رسالتنا عن حكمة جحـا أمير

المضحكين ــ نسأل كما تعودنا من كل كلمة : ما الضحك ؟

ولماذا نضحك ؟

وما الضحك بشيء واحد ..

وما نضحك لسبب واحد ..

وما نفكر في الضحك على نحو واحد ..

ولكنها الكلمة التي لا غنى عنها ، ولا أمان منها كذلك ما لم نعرف سر الرصد المسحور. .

وها نحن أولاء في هذه الرسالة نعرف سر هذا الرصد في كلمة واحدة ــ كلمة الضحك ــ لنعرف منها أمير المضحكين بين المضحكين ، ونعرف منها أضاحيكه بين أشتات المضحكات ..

الضحك ضحوك عدة اذا صح هذا التعبير ، وليس بضحك واحد .

ونحن نضحك لأسباب كثيرة ، ولسنا نضحك لسبب فرد لا يتعدد ، ويوشك أن يكون لكل حالة من الحالات ضحكتها التي تصدر عنها ولا تصدر عن حالة غيرها ، كأنما هي لغة كاملة على أسلوبها في التعبير .

هناك ضحك السرور والرضى ، وهناك ضحك السخرية والازدراء ، وهناك ضحك المزاح والطرب ، وهناك ضحك العجب والاعجاب ، وهناك ضحك العطف والمودة ، وهناك ضحك الشماتة والعداوة ، وهناك ضحك المفاجأة والدهشة ، وهناك ضحك المقرور وضحك المشنوج وضحك السذاجة وضحك البلاهة ، وما يختاره الضاحك وما ينبعث منه على غير اضطرار...

بل ربما كان لــكل مضحكة من هذه المضحكات ألــوان لا تتشابه في جميع الأحوال .

فالضاحك المسرور قد يكون سروره زهوا بنفسه واحتقارا لغيره ، وقد يكون سروره فرحا بغيره ، لا زهو فيه بالنفس ولا احتقار للآخرين .

والضاحك الساخر قد يضحك من عيوب الناس لأنه يبحث عن تلك العيوب ويستريح اليها ولا يتمنى خلاص أحد منها ، وقد يضحك من تلك العيوب لأنه ينفس عن عاطفة لا يستريح اليها عامة بين اخوانه الآدميين ، ولا خاصة في أحد يعنيــه من أولئك الاخوان .

والضاحك من عيــوب السخف والحماقة قــد يضحك من السخيف الأحمق أو يضحك من الذي يحكيه في سخافته وحمقه فيعرف كيف يحكيه ، وكلاهما باعث من بواعث الضحك مخالف لغيره في أثره وداعيه ومعناه ..

* * *

هذه المسألة وضعت موضع التجربة العلمية بعــد انتشار الصحافة ، وتنوع موضوعاتها ، واختصاص طائفة منها بموضوع الفكاهيات والمضحكات ، وتنافس الكتاب في ابتداع فن جديد من أساليب الفكاهـــة والضحك ، كلما ألف القراء أسلوبا منهــا وسئموه أو اشتاقوا الى غيره ، فظهرت الفوارق بين النكات التي تدعو الى الضحك ، وتمايزت بأسمائها وعلاماتهــا ، وأوشك الكتاب الفكاهيـــون أن يتمايزوا بالتفوق في كل باب من هذه

الأبواب ، واستطاعوا أن يفرقوا بينها بالتعريفات أو بالحدود المفهومة ..

ولعلنا نطالب هؤلاء الكتاب بما ليس عندهم اذا سألناهم أن يرجعوا بهذه الفكاهات المختلفة الى مصادرها من الطبيعة البشرية والعلل الفلسفية ولكننا نستطيع أن نعتمد عـــلى تجربتهم في التنويع والافتنان ، لأنه عمــــل يزاولونه كل يوم ، ويعرفون خطوات الانتقال فيه من فن الى فن ، ومن أسلوب الى أسلوب ، ولو لم يكن هذا الاختلاف في الأساليب الا اختــــلافا في التعبير والتنميق .

ومن أمثلة الاجتهـــاد في التفرقة بـــين موضوعات الضحك والفكاهة كتاب مزاج الفكاهة The Humour of Humour لمؤلفه ايفان ايسار Evan Esar الذي اشتغل زمنا بكتابة الفكاهيات وتقسيمها وترتيب أقسامها ، وأراد بكتابه هذا من عنوانه الى خاتمته أن يكون تطبيقا لآرائه واختباراته ، لأن العنوان نفسه يشتمل لعبا بالألفاظ كاللعب الذي يدخل في النكات الجناسية ، لأن كلمة « هيومر » بالانجليزية تأتي بمعنى المزاج وتأتي بمعنى الفكاهة وتدل على اخلاط الجسم في مذهب الاقدمين كمــا تدل على وسائل تعديل هذه الاخــلاط بالدواء أو بتطبيب الخواطر وتنزيه النفوس .

ولا تحصى أفانين الضحك والفكاهة كما شرحها المؤلف في كتابه ، ولكننا نشير الى بعضها عـــلى سبيل التمثيل ، وندع للقارىء أن يقيس عليها من تجاربه ما يشاء .

فمن هذه الأفانين « الملاحظة المزدوجة أو الملاحظة اللاذعة » ومثالها كلمة تقال عن الزواج من أجل المال : « انه يصلح أبا لها بسنه ، وزوجا لها بثروته » أوكلمة تقال عن البخيل : « انه يضع نقوده في الحشية ليجد تحته شيئا يستند اليه » .

ومن هذه « الآبدة » أو العبارة الشاردة ، والفرق بينها وبين الملاحظات السابقة أنها أقرب الى المثل السائر الذي يسهل تعميمه ولا يخص أحدا بعينه . وأما الملاحظات السابقة فأكثرها يقال عن الاشخاص أفرادا بغير تعميم ، ويدور على شئونهم ولا يدور على المواقف والاطوار .

ومن أمثلة النكتة الآبدة أو العبارة الشاردة أن الأخلاق طلاء تمسحه الخمر ، وان السن تخون أصحابها لأنها تدل على السنين ، وأن الحكيم حين تقنعه حكمته بأن يتزوج يصبح الأحمق زوجا وله أبناء ، وأن لابس النظارة « منظره بغيرها أحسن ونظره بغيرها أقبح ! » وأن الامريكيين أحرار لأنهم « يأخذون » حريات كثيرة ! ..

ومنها اللغز ، وعماده على المغالطة ، أو على جمع المتشابهات التي تختلف في الحقيقة أبعد اختلاف .

ومثاله أن يسأل السائل : « لماذا وضعوا واشنطون على تل ؟ » فيجيب المجيب : « لأنه مات » !

أو يسأل السائل : « ما ذلك الشيء الذي يصنعه الرجل واقفا وتصنعه المرأة جالسة ويصنعه الكلب على ثلاث ؟ »

والجواب : « المصافحة أو تحية السلام عند اللقاء » .

ومن أفانين الفكاهة الجناس اللفظي ، وهو يشبه اللغز في السؤال والتورية ..

يسأل السائل : «ما وجه الشبه بين الفلاسفة والمرايا ؟»
والجواب : « التأمل والنظر » !
أو يسأل السائل : « ما وجه الشبه بين الكتاب والشجرة ؟ »
والجواب : « كلاهما له ورق ! »

أو يسأل السائل : « ترى هل يحاسب الرجل على قتل الوقت اذا حطم الساعة ؟ »

والجواب : « كلا ! اذا ضربت الساعة أولا » .

ومن هذه الأفانين المساجلة والمحاورة ، وقد يكون السائل فيها هو المجيب :

تقول لي : لماذا تشرب الخمر ؟ .. قل لي ماذا تقترح أن أصنع بها ؟ »

وتسألني : « أي الدجاج أطول رقادا ؟ كيف ؟ ألا تعلم ؟ .. الذي مات ! » ..

ومنها الظن المختلف وهو يتوقف على الموقف ، وتعدد المشتركين فيه ، ووجود اللبس الذي يدعو الى اختلاف الظنون ، ومثاله قصة عن أربعة في مقصورة قطار : فتاة حسناء ، وامرأة عجوز ، وكهل فرنسي ، وضابط ألماني أثناء احتلال الالمان باريس . ودخل القطار نفقا فسمع في المقصورة صوت قبلة وصفعة ، ثم خرج القطار من النفق وهم صامتون وعلى وجه الضابط الالماني أثر صفعة . فقالت المرأة العجوز لنفسها :

« ما أطهرها من فتاة » ! وقالت الفتاة الحسناء لنفسها : « عجبا له . يقبل العجوز ولا يقبلني ؟ » . وقال الضابط الألماني : « يا له من فرنسي خبيث .. غنم القبلة ، وغنمت أنا الصفعة ! وقال الفرنسي : « لقد نجوت بها. قبلت ظاهر كفي وصفعت الألماني، ولم يتهمني أحد » !

ومنها النادرة ، وهي نكتة لا بد لها من قصة تتعلق بصناعة أصحابها أو بعملهم وقواعده المتعارف عليها : كان مارك توين ـ الكاتب الفكاهي المشهور ـ يعمل في احدى الصحف ، وتـكاد الديون تستغرق مرتبه ، وكان من عادته أن يهمل كل انذار يأتيه من صاحب دين . واتفق يوما أن كاتبا من مساعديه كان الى جانبه ، وهو يهم بأن يلقي بعض هذه النذر في سلة المهملات. فنبهه الكاتب قائلا : « انتظر يا سيدي . فان في ظهر الورقة كلاما يقول فيه صاحب الدين انه سيقاضيك ان لم تسرع الى السداد » . فقال له مارك توين كأنه ماض في عمله : « ألا تعلم يا صاح أن الورقة التي تكتب على وجهين تهمل في هذا المكان ؟! »

* * *

ومنها الكلمة التي تقال وتفهم على معنيين ، أحدهما يسر والآخر يزعج أو يخيف ، وتشبهها كلمات الجناس كلما دلت على نقيضين

يقول الرجل لزميله في بلاد النيام نيام أكلة البشر : « ان الزعيم يريدك للغداء »

أو يقول فرنكلين وهم يكتبون وثيقة الاستقلال : « يجب

أن يتعلق بعضنا ببعض والا تعلقنا على انفراد » ..

أو يقول الشيطان : « الفضيلة في الوسط » ، وهو يجلس بين رجلين من رجال السياسة !

أو يقول قدح الماء للبرشامة : « تقدمي وانا بعدك » .. وفيها مثل لظاهر التحية وباطن الاشتراك في البلاء !

أن تقول الفتاة لمن يغازلها : « أنا كالقاطرة .. ان لمستني صرخت » !

ومما أحصاه الفكاهيون المعاصرون من أساليب التعبير الفكاهي أسلوب القلب والعكس ، ومن أمثلته : « ان الحب يذهب بالزمن وان الزمن يذهب بالحب » ومنها : « أن بعضهم يحب أن يشاهد الصور المتحركة ، وبعضهم يشاهد الصور المتحركة ليحب » ومنها : « ان الانسان يخلق المتاعب وان المتاعب تخلق الانسان » ومنها : « ان من يتعمق الى أساس الأمور ترفعه الأمور الى الذروة العليا » ومنها : « ليس الضحك بداية سيئة للصداقة ولكنه نهاية حسنة » .

وتكرار الكلمة في مواضعها فن من فنون الفكاهة ، كتكرار ذكر الذكاء في هذه العبارة :

« الفتاة الذكية أذكى مما يبدو عليها لأن الفتاة الذكية لا تبدي ذكاءها » ..

أو هذه العبارة : « غير المتوقع يقع أحيانا حين لا تتوقع من المرء ما هو خليق أن يقع منه » .

أو هذه العبارة : « علينا أن ننسى أنفسنا لنشعر بالسعادة،

ولكننا لا نسعد اذا نسينا أن ننسى أنفسنا . »

والنسيان المعهود في العلماء والمعلمين يضحك أو يحسب من أسباب الفكاهة ، وتروى لذلك قصص كثيرة هذه أمثلة منها :

« جلس أستاذ في مكتبه بالمنزل وهو في قلق شديد علـــى زوجته التي أدركهـــا المخاض ، واذا بقريبة له تقتحم المكتب لتبشره بولادتها وتصيح به : « انه ولد » .. ويكون قد ذهل عما حوله فيسألها : « وماذا يريد ؟ » !

وذهب أستاذ الى طبيب فقال له : « اخرج لسانك » ثم قال له : «لسانك في حالة حسنة ولكن ما هذا الطابع الذي عليه ؟» .. فابتسم الاستاذ وقال : « أهو هناك وأنا أحسبني وضعته على الغلاف ! »

وأكذوبة ابريل وما جرى مجراها فن من هذه الفنـــون الفكاهية ، يقول مارك توين : « ان أول ابريل يوم واحـــد في السنة يذكرنا بغفلتنا في جميع الأيام » ..

ويقول المتندرون بهذا اليوم ، ان الذين يولدون فيه يكتمون تاريخ ميلادهم ليثبتوا وجودهم ويستريحوا من ولع النـــاس بتذكيرهم ما يحاولون كتمانه ، وكذلك من يولد في اليوم التالي أو اليوم السابق .. ولكنهم يطلقون اسم مغفل ابريل على كل ضحية تجوز عليه الأكاذيب في يوم مجعول لهذه الأكاذيب .

والعثرة اللسانيـــة أو القلميـــة تضحك وتهيىء النفس للفكاهة ، ومن قبيلها قول بعض الخطباء على اثر حفلة موسيقية من الحفلات التي لا تكثر في القرى : « انها لحسن الحظ حفلة

نادرة » .. ويشبه هذه العثرة ان طبيبا كتب شهادة وفاة فوضع اسمه في موضع سبب الوفاة .. بدلا من موضع التوقيع !

والغلطة مع حسن النية تثير الغيظ فيمن يصاب بها وتثير الضحك فيمن يشاهدها ، واحدى النوادر المروية عن هذه الغلطات أن صاحب حانة كان يقف وراء البنك في حانته اذ هجم عليه قادم مستعجل وسأله في لهفة : « أعندك شيء يزيل الفواق ؟ » فلم يجبه صاحب الحانة ولكنه ضربه بالفوطة المبلولة على وجهه ، فنظر الرجل اليه شزرا وهم أن يبطش به لولا أن بادره صاحب الحانة معتذرا ، وقال له انني أرحتك بهذه الضربة من الفواق .. ثم ظهر ان الرجل لم يكن به فواق وانما طلب الشراب الذي يزيله لزوجته التي كانت في السيارة عند الباب !

وقد يتبع الغلطة حسن التخلص فتضيف اليها فكاهة على فكاهة :

أخذ بعض المدعوين الى احدى الولائم في حديث مع جارته ، وأحب أن يبدأ بالغيبة والنقد لأنها من الأحاديث المحبوبة في أمثال هذه المجتمعات ، فأنحى بالذم والوقيعة في رجل لا يعرفه على مسافة منهما ، وفاجأته السيدة قائلة : « ويحك! انك تعني زوجي ! »

قال : « نعم ! ولهذا أكرهه ! »

وأراد طبيب مستشفى المجانين أن يتصل برقم يحتاج الى التحدث مع صاحبه على عجل ، فجن جنونه لاهمال العاملة ومراوغتها في الجواب ، وصاح بها محتدما : « ويلك ! أتعلمين

من أنا ؟ » قالت : « لا . ولكني أعلم أين أنت ! »

والغلطة المطبعية احدى الغلطات الفكاهية أو المضحكة، وهي خاصة بكل لغة وقلما تصلح للترجمة الى لغة أخرى ، ولكننا نضرب لها الأمثلة بما عرفناه من غلطات المطبعة عندنا، واحداها غلطة الصفاف في نقل السطور بين اعلانات الزواج واعلانات الوفيات، فاذا بالخبر يقرأ ان العروس تقبل التهنئة من المدعوين ثم شيعوه بالرحمات والدعوات .

وحدث في الاحتفال برفع الستار عن تمثال نهضة مصر ان حكمدار العاصمة وقف على مقربة من كبار الرؤساء وقبعته على رأسه ومنشته في يده ، فعلقنا على ذلك في كتابة أخبار الحفلة ، واضطربت السطور بين يدي الصفاف فجرى الخبر على هذا المثال :

« وحضر فلان وفلان وصاحب الفضيلة الاستاذ اكبر شيخ الجامع الأزهر ، ولوحظ عليه أنه كان يلبس قبعته ويعبث بمنشته وهو على مقربة من كبار ولاة الأمور . »

وكتب بعض المخبرين حديثا مع فريدريك ، فاذا به يسمى مستر فريد بك !

وغلطات المطبعة من هذا القبيل لا تحصى في جميع اللغات ولكنها تزداد في اللغة العربية لتشابه بعض الحروف .

وحسن التخلص وحده قد يحول الموقف من الغضب الى الضحك ، ولو عرف السامع أنه ملفق للخلاص من الحرج واللوم .

ذهب عريس مع عروسه الى محطة السكة الحديد للسفر الى ضاحية يقضيان فيها شهر العسل ، ثم عاد من شباك التذاكر ومعه تذكرة واحدة ، فصاحت به مغضبة :

ـ ما هذا يا عزيزي ! تذكرة واحدة ؟

فما كان أسرع منه الى الاعتذار بالكلمة الوحيدة التي تخطر على البال ، ولا يخفى على الزوجة أنها عذر مختلق للخلاص من هذا المأزق الأليم في مطلع شهر العسل ، قال :

ـ ما هذا يا عزيزتي ؟ لقد أنسيتني نفسي !

وفوجىء موظف في مصرف ، وقد أغمض عينيه ، وكاد أن يستسلم للنعاس ..

قال الرئيس : « أنائم في أول النهار ؟ »

قال الموظف « اليقظ » « علي رسلك يا سيدي الرئيس ، ألا أستطيع أن أغمض عيني لحظة للصلاة قبل بدء العمل ؟ »

* * *

ويذكرون من ضروب الضحك خيبة الحيلة وارتدادها على صاحبها ، أو ظهور الخديعة على من يفرط في الذكاء فلا يلبث أن يبدو لنفسه ولغيره كأنه مفرط في الغباء .

دخل رجل على طبيب في « عيادته » فاعتقد الطبيب أن الزائر مريض يطلب العلاج ، وأراد أن يوحي اليه بمقدار أجرته في غير مساومة ، فعمد الى التليفون وأداره وراح يقول لمحدثه المزعوم : « نعم ! أنا الدكتور جونسون ! انني مشغول جدا ..

تسأل عن القيمة المطلوبة ؟ .. انها كما أخبرتك خمسمائـــة ريال .. وأنت تذكر هذا ؟ .. حسن الى اللقاء اذن ! »

ثم وضع سماعة التليفون والتفت الى الزائر متسائـلا : « ماذا أستطيع أن أصنع لك يا سيدي ؟ »

فأجابه الزائر : « لا شيء . انني موظف مصلحة التليفونات الذي طلبته لاصلاح تليفونك » !

وكان موظفان يعملان في مكتب واحد ، يفرغ أحدهما من عمله نحو الساعة الرابعة كل يوم ، ويبقى الآخر بعده ساعتين أو أكثر لانجاز عمله . فسأل هذا صاحبه ذات يوم : « كيف تنجز عملك في هذا الموعد ؟ » قال صاحبه : « انني لا أنجزه أيهـــا الزميل ، ولكنني كلما صادفت مسألة معضلة كتبت على الورقة : يعرض على مستر سمث . ولا بد أن يكون في هذا المكتب « مستر سمث » واحد على كل حال » !

فخلع صاحبه سترته ونظر اليه متحديا وهو يقول كـمن نشط من عقال : « الآن تبقى أنت للساعـــة السادسة .. أنا مستر سمث الذي تجهله . فاعرفه بعد اليوم » !

ومن أساليب الفكاهة الاقضية التي يسمونها بالاقضيـــة السليمانية :

اتهم رجل بالسرقة ، فأراد المحامي أن يجر القاضي الى شرك يغريه بالوقوع فيه ، وتحذلق في دفاعه متعمدا فقال : « انـكم تعاقبون رجلا كاملا بعمل ذراع واحدة هي التي جذبت السلعة المأخوذة من وراء القضبان » ..

قال القاضي ، وهو يظن أنــه أوقع المحامي في شركــه : « حسن ! نحن نحكم على الذراع بالسجن ستة أشهر ، ولينطلق صاحبها حيث يريد »

فخلع المتهم ذراعه المصنوعة وهم بالانصراف .

والمفارقة احدى هذه المضحكات ، وعلى نحوها نصيحـــة الناصح : « لا تقص على الاصلع حكاية يقف لها الشعر . فهو جهد ضائع » .

وعلى نحوها تحذير المحذر : «لا تقتل الرجل الذي قبل زوجتك اليوم ، فانك لم تقبلها منذ سنة ! »

ويأتي الضحك من تناقض المعاني الكثيرة في هذا التحذير ،

فمنها أن الرجل الذي قبل الزوجـــة لقي عقوبته التـــي تساوي القتل ..

ومنها أنه قام بواجب أهمله الزوج ،
ومنها أنه لازم في المستقبل ،
ومنها أشباه ذلك كثير ...

وعلى نحوها : « ان غاية الكسل أن تستيقظ عند الفجـر لكي تجد وقتا طويلا للدوران » .

والصورة الهزلية ، في الكلام ، أهم هذه المضحكات ، ومن هذه الصور أن فلانا بلغ من طول وجهه أن الحلاق يتقاضاه أجر الحلاقة ضعفين ، وان فلانا بلغ من ضخامته أن ظله وقع على رجل فمات ، وأن فلانا بلغ من طوله انه يصعد عـــلى كرسي ليغسل أسنانه !

وسرعة الجواب مع المغالطة فيه لون من ألوان الفكاهة وتهيئة النفس للضحك ..

مصور له أولاد قباح .. يداعبه ناقد فيعجب كيف يصنع أولاده بهذا القبح ويصنع صوره بذلك الجمال .

والمصور يجيب : « لا عجب ياسيدي . أولادي أصنعهم في الظلام وصوري أصنعها في النور » !

وتقول فتاة لزميلتها : « لقد رفضت الزواج من فلان ، وهو منذ ثلاثة أشهر عاكف على الشراب » .

فتقول الزميلة وهي تصطنع الجد في الجواب : « هذا الذي نسميه مبالغة في احياء الافراح » !

وتهزأ سيدة من زميلتها المؤلفة فتسألها : « من الذي ألف كتابك الاخير ؟ انه بديع » .

وجواب المؤلفة من جنس السؤال : « سرني والله انه أعجبك . من الذي قرأه لك ؟ »

* * *

وتعد « المقالب » من بواعث الضحك ، وهي الأكذوبة التي توقع السامع في بعض الغرم أو بعض التعب ، دون أن يصحبها ضرر أليم . والمبالغة فيها كاختلاق أخبار النعي ، والاعتدال فيها كالدعوة الى وليمة ، ولا وليمة ! أو تقديم الحلوى وفيها دواء .. غير مطلوب

ومن الفكاهة اتباع الحكمة بحكمة أخرى توافق مقدماتها ولا تخطر في الحسبان ، ومن أمثلتها أن الالفة في الحب تولد

الاحتقار .. والاطفال ، وأن الفتاة التي تشبه الكتـاب المقروء توضع مثله على الرف، وأن تفاحة في اليوم تبعد عنك الطبيب، ولكن بصلة في اليوم مفعولها أكيد .. تبعد عنك كـل انسان ، وأن اثنين لازمان للشجار ، ولازمان أيضا للزواج ، وأن المال ينطق .. والمال يخرس !

والسخرية احدى هذه الالوان ، ومن السخرية أن يقول القائل جاداً كأنه يعني ما يقول : « ما بال فلان ينتقم مني كل هذا الانتقام ؟ انني لم أحسن اليه كل هذا الاحسان ؟ »

وذهب فتى الى شباك البريد ، فوجد الموظفتين في شاغـل عنه بحديث طويل عن زي فستان السهرة الـذي كانت تلبسه أحداهمـــا ، فتأنق الفتى في الوصف والرجـــاء ، وطلب الى احداهما أن تتفضل باعطائه طابعا قرمزي الوسط وردي الحافة منقوش الاطراف والجوانب ، ومشغولا كله ولا يساوي مع هذا أكثر من ثلاثة مليمات !

والمحاكاة باب منابواب السخرية ، تتشابه الامثلة عليها ، ويدخل فيها التهكم والمجاراة .

خلا أحد المدعوين باحدى المدعوات في سهرة الرقص فقبلها، واستجابت لقبلته لحظة غير قصيرة، ثم قالت له بعد أن افترقت شفتاها وشفتاه : « أتعلم أنها أول قبلة رضيت بها في حياتي ؟ » فقال الفتى كأنه يجاريها : « نعم . لانك عـــلى ما يظهر ورثت الشيء الكثير بغير تعليم »

وتحدث بعض الجلساء في دعوة عامة عـن الثروة ووسائل

جمعها ، كأنه يوهم السامعين أنه من أصحابها ، فأثنت احـدى الجالسات على سرعة فهمه ، لأنه يعرف الكثير عن المكاسب مع قلة ما يكسب !

* * *

والنصائح المطردة ، مع القياس الظاهر ، مع استحالتها بعد التأمل اليسير ، أحد هذه الأقسام التي اصطلحوا على تقسيمها في الصحافة الفكاهية ، ومن قبيلها هذه النصائح :

قل لا لمن يهمون بالزواج

وقل لا لمن يهمون بالطلاق

وقل لا لمن يهمون بالموت

وقل لا لمن يهمون بالولادة

ويتمشى على أسلوب هـذه النصائح الهازلة جواب رجـل أصيب بالزكام وأشار عليه صديق بوصفة ناجعة ، فقال له : « نعم . اليوم أعمل بوصفة جونس ، وغدا بوصفة سميث ، وبعد غد بوصفة براون ، فان بقيت مني بقية لوصفتـك يوم الأحد فهو دورك ! »

وقد تطرد الوصايا التالية مع هذا النسق من النصيحة :

« لا تطرد الذبابة من جبهة امرأتك بمطرقة !

« لا تقلق اذا علمت أن كل شيء يذهب في الغسيل ، حتى البدلة !

« لا تنتفخ وأنت تعلم أن الصفر أسمن الأرقام !

« لا تحمل هم الزبدة . انك تصنعها من حشائش الأرض ،

متى تيسرت البقرة !

« لا تتردد في بذل النصيحة ، لا أحد سيسمعها

« لا تعمل بنصيحة ، وأولها هذه » !

* * *

وعندهم فكاهة يسمونها فكاهة « قبل وبعد » مدارها على المقابلة بين هذين الطرفين في مسائل الزواج على الخصوص ، وهذه أمثلة منها :

« قبل الزواج تقبِّل الفتاة الفتى لتربطه ، وبعد الزواج تربطه لتقبله .

« قبل الزواج يأخذ الرجل بيد المرأة حبا ، وبعد الزواج يأخذ بيدها دفاعا عن النفس .

« قبل الزواج يقول الرجل لا بد أن ينفذ أمري في منزلي أو أعرف السبب ، وبعد الزواج يعرف السبب !

« قبل الزواج يسعى الرجل الى المرأة ، وبعد الزواج يسعى للمرأة !

« قلما يكون الرجل بالمزايا التي تراها فيه المرأة قبل الزواج ، وقلما يكون بالعيوب التي تراها فيه بعد الزواج .

« في بعض البلاد الشرقية لا يرى الزوج امرأته قبل الزواج، وفي البلاد الغربية لا يراها بعده ! »

ويلحق بهذه الزوجيات تهكم المحدثات والمحدثين من بنات « الدقة القديمة » كما يقال في مصر باللغة « البلدية » . ومنه أمثال هذه المقارنة :

« البنت من الدقة القديمة تحمر اذا خجلت ، وبنتها العصرية تخجل اذا احمرت !

« والبنت من الدقة القديمة كانت تذهب الى المدينة وتقف عند جماعة الشابات المسيحيات ، أما بنتها العصرية فانها تذهب الى المدينة ولا تقف عند شيء !

« والبنت من الدقة القديمة كانت تشعر بالاهانة اذا عرض عليها الشراب ، وأما بنتها العصرية فتبلع الاهانة

« والبنت من الدقة القديمة كانت لا تجسر على تناول يد فتاها ، ولكن بنتها العصرية لا تجسر على تركها

« والرجل من الدقة القديمة له رأس يصلح للحسابات ، ولكن ابنه العصري له عين تنظر اليها » !

وهم يصطلحون على تسمية انسان مشهور ينسبون اليه الحكمة التي يخترعونها لساعتها ، من قبيل قول الشرقيين « قال الراوي » عند اسناد الكلام الذي يعلم السامعون انهم مخترعوه

وأشهر هؤلاء الحكماء المختارين للاسناد الصادق والمدعى حكيم الصين كونفشيوس .

فمن كلامه المزعوم ، قال كونفشيوس : « الرجل الذي يسوق بيد واحدة يصطدم بالكنيسة . »

وهم يعنون بذلك خطر الزواج ، لان الرجل الذي يسوق بيد واحدة يخاصر امرأة معه في السيارة باليد الأخرى .

ومن كلامه المزعوم ، قال كونفشيوس : « الفتاة التي لها مستقبل تحذر الرجل الذي له ماض . »

ومن كلامه : « الرجل الذي يغازل المرأة على المصعد ليس في مستواها ! »

ومن الأضاحيك ضرب من المزاح الفارغ الذي يشبهه ما يسمى في الزجل العربي الحديث بالدور المجنون

يسأل السائل محدثه : « ألم أرك في بلدة بفالو ؟ »
فيجيبه محدثه « لم أذهب قط الى تلك البلدة »
ويعود السائل فيقول : « ولا أنا ! »
ويري الحوار بين اثنين على هذا المنوال :
ــ ماذا تصنع ؟
ــ أبحث عن ورقة ضائعة
ــ أين سقطت منك ؟
ــ في الشارع الثامن والثلاثين
ــ لكننا في الشارع الأربعين !
ــ نعم ، أعلم ذلك ، ولكن هنا نور !

والحكمة التي « يفلت » منهـا درسها محسوبة في هـذه الأضاحيك :

تقص المدرسة على الأطفال قصة الحمل الذي لم يسمع كلام أمه فأكله الذئب ، فيقول أحد الاطفال في بـراءة أو في خبث : « والحمل الذي سمع كلامها أكلناه نحن » !

أو يقول المدرس لتلاميذه الصغار : « ان العصفور المبكر يلتقط الدودة » ..

فيقول أحدهم : « والدودة المبكرة يلتقطها العصفور » !

ومن المفيد أن نلاحظ هنا أن هذه « التقسيمات لا تبدو غريبة للقارىء العربي الذي ألم بعلوم البيان والمعاني والبديع، لأن الكثير منها مقرر بتعريفاته وأمثلته وشواهده في تلك العلوم، ، وما من قارىء عربي ألم بعلوم البلاغة بعض الالمام الا وهو يعرف التورية والمقابلة والمشاكلة ، والهزل الذي يراد به الجد ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وتجاهل العارف ، والاضمار في مقام الاظهار ، واخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، والتشبيه الملفوف والمفروق ، والفصل والوصل ، والقلب والالتفاف والتغليب ، والكناية والتحريف والتصحيف .

كل هذا مألوف للقارىء العربي من بلاغة لغته ، كما يألف من كتب الصناعة اللغوية جميعا محكم القول في جوامع الكلم والفرائد والاوابد والمثل السائر واللحن الذي يحسب من الألغاز والألغاز التي تحسب ضروب الرمز أو الايهام والتعمية .

الا اننا لم نشأ أن نطلق هذه التقسيمات والتعريفات على ضروب الفكاهة المصطلح عليها بين المشتغلين بالكتابة الصحفية وما اليها ، لأن مصطلحات الصناعة اللغوية وضعت في لغة العرب لتمييز درجات البلاغة ومعانيها ، ولم توضع هذه المصطلحات الحديثة عند الغربيين لشيء من ذلك وانما وضعت للتفرقة بين موضوع وموضوع من مادة الصحافة الفكاهية ..

وأمر آخر يباعد بين هذه المصطلحات الحديثة وبين مصطلحات علوم البلاغة العربية . وذاك أن المصطلحات الحديثة لفنون الأضاحيك لم تزل على فجاجتها الأولى ولم تبلغ بعد من الدقة في الأسماء والتعريفات والشواهد مبلغ نظائرها في علوم البديع

والمعاني والبيان ، وقد يختلط بعضها لاتفاقه فيمصدر الشعور وأثره فلا يتم التعريف بينها الا بحكم العادة بين المشتغلين بعمل واحد يعرفون مواده وأجزاءه بالاشارة والنظرة العابرة ولا يلزم أن يقيموا الحدود بينها بالفواصل المنطقية أو النفسانية .

على أن الاختلاف بين عناوين الفكاهات ـ ولو بحكم العادة ـ جدير أن نتوقف عنده وننتظر ما يليه من التعريفات والتقسيمات التي ترجع الى اختلاف في أصول الموضوعات أو اختلاف في طبيعة الشعور . وسوف يأتي الوقت الذي نميز فيه بين ضحكة وضحكة كما نميز بين كلمة وكلمة ، ونعني بذلك تمييز الفهم والتفسير ولا نقصر الامر على الشعور والتلبية النفسانية ، فاننا الآن نميز بشعورنا بين ضحكات مختلفات كما كان آباؤنا وأجدادنا يميزون بينها بتبادل الشعور والتلبية بين نفس ونفس ، وليس هذا ما يعنيه طلاب التمييز بين أفانين الفكاهات والمضحكات في الدراسات العصرية ، سواء قصدوا من هذا التمييز تيسير العمل بين المشتركين فيه كما يتيسر للعاملين في دانوت واحد أن يميزوا أنواعه بحرف مرقوم على الرف أو علامة منقوشة على الصندوق ، أو قصدوا من هذا التمييز أن ينفذوا الى ينابيع الشعور المتعمقة في النفس البشرية ، حيث تصدر المضحكات والمبكيات وتكمن أسباب الغرائب والمألوفات ، وما ينبغي لنا أن نزعم أننا نفهم نفوسنا حق فهمها ونحن نجهل الفرق بين ما يضحكها وما يبكيها وما يقع منها موقع الغرابة في أعمق الأعماق ..

وربما كان اسم « الضحك » مغريا بالاستخفاف منافيا للجد في بواعثه ومعانيه ..

ولكن البحث عن أسباب الضحك جد كأصدق الجد الذي يعرفنا بنفوسنا كما يعرفنا بها أعظم العظائم وأفدح المحزنات . بل ربما كان الامر « المحزن » يسير التعليل لأننا لا نحار فيه ولا يخفى علينا أنه يرجع الى حب السلامة وكراهة الضرر والاصابة ، وربما كان لنا نحن الآدميين شركاء في الشعور بالمحزنات بين الحيوانات العليا وبعض الحيوانات الدنيا ، لان الحزن عندها بمثابة رد الفعل الجسداني لكل ألم وكل مكروه . أما الضحك فليس من سهولة التفسير بهذه المنزلة ، ولا سيما الضحك الذي يتشعب ويتفرع وتتباعد مصادره من النفس أو تتقارب ـ مع التفرقة بينها في الاسماء ـ حتى يلتبس موضوع منها بموضوع وعنوان بعنوان ..

هذه عوارض نفسية يختص بها الانسان ولا يشاركه فيها حيوان من الخيوانات السفلى أو العليا ، بل يعتقد الكثيرون من علماء الاجناس البشرية أن القبائل البدائية من الناس لا تضحك ولا تدرك الضحك ، وأن هذه الظاهرة المترقية في سلم الانسانية لا تشاهد بين الهمج الا بعوارض العصبية التي لا تدخل في حيز الارادة ، كأنها ضحكة المقرور أو ضحكة المتشنج ، وحتى هذه الضحكات التي تشبه العوارض المرضية لا تشاهد بين الهمج على كثرة تجعلهم يلتفتون اليها ويسمونها بكلمة من كلماتهم القليلة، فهي والتخبط من الصرع عندهم سواء .

لا جرم يجد الفلاسفة غاية الجد في النظر الى الضحك وأسبابه منذ عهد بعيد ، ولا جرم يجدون اليوم وغداً في هذه الدراسة بين نفسانيين واجتماعيين ونقاد للفنون والآداب .

ونحن في هذه الرسالة نريد أن نعرف « جحا » ونريد أن نعرف الانسانية كلها بهذه المعرفة ..

* * *

وربما كان بعض ما تقدم من التعريفات مفيدا لنا في وضع جحا بموضعه من الحياة الانسانية حيث كان في كل مجتمع وكل حقبة وكل عنصر وكل قبيل ، فان بعض هذه التعريفات يرينا ان « جحا » ليس بالغريب المجهول في بيئة من البيئات التي تضحك كما نضحك وتستغرب من نوادر جحا وبوادره ما نستغربْ ، وبعض الأمثلة التي تقدمت نستطيع أن ننسبها الى جحا فلا تخالف في معدنها ما ينسب اليه ، وهذه احدى العلامات على سريان الضحك مسرى اللغة بين بني الانسان ، فهو كاللغة يؤدي لجميع الناس معاني مشتركة يتقاربون بها على تباعد المنازل والاجناس ، وهو كاللغة يختلف بين وطن ووطن وبين جنس وجنس ، كما يختلف بين قائل وقائل في مناهج التعبير بين المتكلمين بلسانٍ واحد في أسرة واحدة .

وسنعرف « جحا » حقا حين نعرف لماذا يضحك الناس عامة بغير اختلاف ، ونعرف لماذا يضحكون خاصة من شيء دون شيء ، ومن انسان دون انسان ..

وسنجد « جحا » واحدا ولكنه « جحا » الناس أجمعين ، لأن

الناس أجمعين يضحكون منه وان لم يظهر في غير موطن واحد أو مواطن متشابهة تحسب كالوطن الواحد . لأن الانسان حيــوان ضاحك حيث كــان ، ولعله ضحك آلاف السنين ولم يفهم بعد أسباب الضحك على جليتها ، وسنرى ـ بعد ـ مقدار ما فهمه ويفهمه .

وسنضحك من بعضها وهي صحيحة أو باطلة ، فنتعلـم من الضحك كيف نتلقى تلكم الأسباب .

لماذا نضحك ؟

بعض الناس يحبون المتعة ولا يعنيهم لماذا يستمتعون بها ، وبعضهم تتم متعته بها اذا عرف أسبابها .

قلت في الكلام عن سارة وهمام من قصة سارة : « تتسرب الى المنزل أنباء الأصيل بالاستقراء لا بالمشاهدة في معظم الأيام، فيقرآن أو يسمعان بعض الأغاني ، أو يلعبان الدومينة قليلا ، وهي لعبة تحذقها سارة ، ويعتقد همام أنها أصح الألعاب وأشدها مطابقة للحياة .. فالشطرنج والضامة يعولان على الحيلة ، وكل شيء فيهما مكشوف بعد ذلك ، والنرد يعول على المصادفة والذكاء ، وكل شيء فيه مكشوف بعد ذلك ، والورق اما مصادفة واما صراع قلما يشبه صراع الحياة .. أما الدومينة ففيها حساب للمصادفة ، وفيها حساب للتدبير ، وفيها حساب لليقين ، وفيها حساب للظنون ، وفيها حساب للغيب الذي تجهله أنت وخصمك ، وللغيب الذي تجهله أنت ويعرفه خصمك أو يجهله هو وتعرفه أنت ، وللعيان الذي يعرفه كل من يشاء . ولها قوانين تمنعك أن تتحرك على هواك ، ولها حرية تمنحك الخيار بين ما في يديك .

« قالت سارة يوما ، بعد ما استعادته شرح فلسفة الدومينة للمرة الخامسة أو السادسة أو السابعة : « أولا تستمتع بشيء الا أن تكون له فلسفة » ؟

قال : « لا . بل أنا أستمتع بالشيء ثم أبحث عن فلسفته ، وانني لأبحث عن فلسفته كما يجيل الشارب الكأس في جميع جوانب فمه ولهواته ، كي لا يبقى جانب من النفس لا يأخذ نصيبه من متاعه ، فأحسه وأعمله واذكره وأفكر فيه وأستقصي معناه .. »

وأقول في صدد البحث عن أسباب الضحك انني اشبه هماما في هذه الخليقة ، وانني أحب أن أفهم ما احسه وان احس ما افهمه ، وانني جريت على ذلك في البحث عن أسباب الضحك منذ بدأت الكتابة وتدوين الخواطر والأفكار بين الخامسة عشرة والعشرين ، ولهذا أذكر هذه العادة فيما نحن بصدده . لأنني اذا مررت بما اعتقدته من أسباب الضحك قبل العشرين وبعد العشرين وفي خلال النظر والمطالعة والتجربة الى اليوم — تدرجت بهذه الأسباب في أطوار طبيعية تعين علي المقارنة والتتبع والوصول الى النتيجة ..

كانت لي في نحو السادسة عشرة مفكرة يومية أدون فيها خواطري وتعليقاتي ، جمعتها بعد ذلك باسم خلاصة اليومية حذفت منها عند الطبع كثيرا من الخصوصيات التي ترتبط بتلك الخواطر لا أذكره الآن .

وأحسبني قد كتبت فيها عن المضحكات أكثر مما بقي فيها

بالنسخة المطبوعة ، ولكنني لاحظت فيها أن المضحكات أكثر من الضحك وقلت بهـذا المعنى في الصفحــة السادسة عشرة من النسخة المطبوعة :

« ان المضحكات ليست بالقليلـة ، ولكن الذين يحسنـون صناعة الضحك هم القليلون . فليس من الضروري أن نفتش عن رجل من أمثال موليير لنغرب في الضحك ، فان في كل رجل من الذين نراهم ونعاشرهم موطنا للنقص ، وفي كل عمل موضعا للكلفة والتصنع .. والوادع الناعم البال ــ ولو كـان مغمـورا بالشقاء ــ ذلك الرجل الذي يعرف كيف يفطن الى مواطن الغرور والرياء من أعمال الانسان ، فانه لا يطبق فمه مـــا دام يفتح عينيه » ..

وهنا كنت أقرن أسباب الضحك بملاحظة النقص والادعاء والغرور والكلفة التي يحـــاول صاحبها أن يخدع الناس عــن الحقيقة ، وهي واضحة لمن يلتفت اليها .

ولا أذكر أنني تحريت الترتيب عند طبع الخواطر والمفكرات، ولكنني أجـد في الصفحة الثالثـة والأربعين هذه الخـاطرة عن الضحك ، وفيها أقول ان « للضحك عدة أسباب أكثرها يدور حول محور واحد هو الاغتباط بأنفسنا ، اما بما نحسه مـــن كمالها أو بسلامتنا من النقص الذي نكشفه في سوانا ..

« ولما كان الانسان لا يضحك الا سرورا برجحانه فهو لا يضحك في الأحوال التي رجحانه فيها معروف غير محدود. فالرجل المعروف المكانة لا يضحك مـن تصرف الصعلـوك الوضيـع وان

كان مضحكا في ذاته ، الا اذا كان يسخر من أهل طبقة ليباهي بطبقته أو من أهل بلاد ليباهي ببلاده .

« وقد يضحك الانسان من نفسه اذا كان الاستهزاء لا يناله وحده ... فلما كان ملوك أوربا وأمراؤها وسواسها وقوادها مجتمعين في سنة ١٨١٥ في فيينا وهم واثقون أنهم أحكموا الشبكة على بونابرت وقد جلسوا يصلحون ما أفسده ويعيدون ما درسه من معالم أوربا ـ أعلن في المجلس .. ان الرجل قد أفلت من جزيرة البا وانه قد عاد ثانية امبراطورا على فرنسا . فوجموا هنيهة ثم ارتفعت لهم ضحكة طويلة عالية كأنما يقول كل منهم : ان هذا الكورسيكي لم يعبث بي وحدي بل عبث بنا جميعا . »

ويلي هذه الخاطرة عن الضحك خاطرة عن البكاء قلت فيها ان الانسان « يبكي لغير ما يضحك له : يبكي حين يظهر به النقص والعجز ظهورا لا سبيل الى المداجاة فيه . يبكي في المواضع التي يشعر لديها بالقهر التام ويتحقق له تجرده من الحول والقوة حيالها ..

« في تلك المواضع يقول المسلم متمثلا : لا حول ولا قوة الا بالله . كأنه لا يريد أن يكون ضعيفا الا أمام الله الذي يتساوى الناس عزيزهم وذليلهم في الضعف أمام حوله وطوله . والأطفال المستضعفون أكثر الناس بكاء لأنهم أقلهم اقتدارا .. على أن عدم البكاء لا يفيد في أكثر الأحيان القدرة على دفع المصاب ، فان من أصحاب المظاهر والأبهة من يترفع عن البكاء ويتكلف

الجلد والسكون حتى في الفجائع الفادحة كأنهم يأبون الاقرار بالانقهار على كل حال . »

الضحك والبكاء نقيضان

في هذه الخاطرة حسبت أن الضحك والبكاء نقيضان ، وان الانسان يبكي لغير ما يضحك له ، ومدار الضحك والبكاء معا على الغبطة بالنفس أو نقيضها . فاذا اغتبط الانسان بنفسه ضحك واذا شعر بالمهانة والنقص بكى ..

وليست هذه المقابلة بالصحيحة في جميع نواحيها ، اذ نحن لا يضحكنا كل شيء ، وقد يكون الشيء مضحكا ومبكيا كما يقول أبو الطيب :

وكم ذا بمصر من المضحكا ت ولكنه ضحك كالبكا

والأصح أن الضحك لغة تعبر عن كثير من الحالات كما قدمنا في الفصل السابق ، وليس من اللازم أن يقابله البكاء في كل حالة ، وقد قال الشاعر بيرون وغيره : « انني أضحك لكي لا أبكي » .. كأنما يقولون ان الضحك بدل من البكاء في بعض الأحوال ، ويشبه هذا من بعيد قولنا في تلك الخاطرة ان بعض الناس يتكلفون الجلد والسكون حتى في الفجائع الفادحة كأنهم يأبون الاقرار بالانقهار .

ونقول انه شبه بعيد .. لأن الذي يضحك « لكي لا يبكي » يضحك حقا ولا يتكلف الجلد . بل يقدر على الضحك لأنه يكشف

من أسبابه ما ليس يكشفــــه غيره ، أو لأنه يوسع النظر الى المسألة ولا يحصرها في أضيق حدودهـــا . فهو ضاحك لأسباب أوسع من الأسباب التي تبكي غيره ، وان لم تتناقض هـذه الأسباب وتلك الأسباب .

وقد كان آخر ما دونته في خلاصة اليومية عن الضحك كلمة في الصفحة السادسة والثمانين ، فحواها أن قوة الاستحضار في الذهن لها شأن في الشعور بالمضحكات وغيرها .. « فمن أهـل هذا الخاطر السريع من تبلغ به قــوة الاستحضار أن يستحضر أمراً مضى فيضحك أو يبكي كما لو كان الأمر قد وقع له فعلا في ذلك الحين ... »

وفي ختام هذه الخاطرة أقول ان « الرحمة ليست اذن حيلة اخترعها الضعفاء لمصلحتهم كما افترض النيتشيون ، ولكنهـــا طبيعة من طبائع الانسان ، والفرق فيها بينه وبين الحيوان فرق بين دماغ ودماغ . فذهن الانسان لارتقــاء تركيبه يأخذ الشبيه بالشبيه ، وذلك ما لم يصل اليه الحيوان . »

وفحوى هذه الآراء في مجموعها ان الشعور بالمضحكـــات والمحزنات ملكـــة انسانية وجدت في الانسان ولم توجـــد في الحيوانات لانه يدرك المشابهـــة ويحس بالتعاطف ويستدعي الخواطر من قريب أو بعيد .

ملكة السخرية

ولست أحصي تطور هذه الآراء خلال الفترة التي تلت طبع « خلاصة اليومية » سنة ١٩٢١ .

ولم أقصد خلال هذه الفترة الى كتابة شيء أبسط فيه القول عن أسباب الضحك في عمومه ، وانما كنت أعود على الموضوع كلما استدعاه التعقيب على مسألة تمت اليه ، كسخرية أبي العلاء والصور الفكاهية في المرآة من تأليف الأستاذ عبد العزيز البشري رحمه الله .

فابتدأت القول عن ملكة السخر عند المعري سائلا : « لم يسخر الانسان ؟ »

ثم أجبت قائلا : « انه ينظر الى مواطن الكذب من دعاوي الناس فيبتسم ، وينظر الى لجاجهم في الطمع واعناتهم أنفسهم في غير طائل فيبتسم ، وهذا هو العبث . وذاك هو الغرور .

« فالعبث والغرور بابان من أبواب السخر ، بل هما جماع أبوابه كافة ، وكل ما أضحك من أعمال الناس فانما هو لون من ألوان الغرور أو ضرب من ضروب العبث ، وكثيرا ما يلتقيان . فان الغرور هو تجاوز الانسان قدره ، والعبث هو السعي في غير جدوى ، ولا يكون هذا في أكثر الأحيان الا عن اغترار من المرء بنفسه وتعدٍ منه لطوره .

« والناس يعلمون ذلك بالبداهة . فهم يعلمون أن الغرور والعبث مادة الضحك وجرثومته التي يتفرع منها كل مضحك من الأعمال والأقوال ، ويجربون ذلك كل يوم في مداعباتهم لصغارهم وامتحانهم لقوة أطفالهم ، يقبض الرجل كفه لابنه الصغير على غير شيء ، فيأخذه بأن يفتحها ويعده بكل ما يجد فيها اذا هو قوي على فتحها ، فيجاهد الطفل في ذلك ما يجاهد : يقوم ويقعد ،ويشتد ويحتد ، ويلتوي ويعتدل ، ويرفع اصبعا

بعد اصبع ، فاذا الذي رفعه قد عاد فأطبق مرة أخرى ، ويعييه الجهد فيركن الى الملق والخديعة ، وهو في كل هذا يحسب نفسه قادرا على أن يغلب أباه عنوة وقسرا أو يغلبه خديعة ومكرا ، وها هو الغرور .

« ثم تلين تلك القبضة فيفتحها فاذا هي خاوية واذا بذلك العناء الذي أجهده وبهره قد ذهب سدى ، وهذا هو العبث ، ومن هذا وذاك تضحكنا الطفولة وتعجبنا غرارتها وكبرياؤها رتتخذها تسلية ولهوا . ولكن هل يضحكنا من الكبار شيء غير هذا ؟ وهل مهازل الحياة ومساخر التمثيل الا صورة مكبرة من هذه اللعبة الصبيانية وسذاجة مركبة من هذه السذاجة البسيطة ؟

« واذا كان معدن السخر وأصل الدعاية فما أجدر رجلاً كصاحب رسالة الغفران أن يكون ساخرا ؟! بل ما أجدره الا يكون له عمل في الحياة غير السخر ؟! انه رجل استخف بالحياة جمعاء ، وهانت عليه الدنيا بما وسعت ، فما من دعوى من دعاوى الناس تتنزه عن الغرور في اعتقاده ، وما من غاية من غايات الناس لا تنتهي في تقديره الى عبث فارغ وخديعة ظاهرة: كلهم مغرور وكلهم عابث وكلهم متعلق من الاقدار بمثل تلك القبضة التي يعييه أن يفض اصبعا منها ... حتى اذا فضها أو خطر في وهمه انه فضها لم يجد ثم شيئا ، او وجدها ملأى بما يشبه الفراغ سخية بما ليس يختلف عن الحرمان .. وكلهم محتقب عدة لا تنجع ومتقلد سلاح لا يصيب :

ورب كميٍّ يحمل السيف صارمــا
الى الحرب والاقدار تلهو وتسخر

لا . بل هبه وصل الى الحرب بسيفه الصارم وقاتل وظفــر وسلم ، فماذا عساه يغنم ؟ ألعله الثناء عــلى الأفواه ؟ أو لعلــه عرش مملكة ؟.. ان كان ذاك ــ وقــل أن يكون ــ فلعمر أبــي العلاء ما قصارى الثناء والسمعة ؟..

وما يبالي الميْتُ في لحده بذمــه شيءٌ أو حمده

وما العروش والدول ؟ وما الملوك والأقيال ؟ فلكم غبر على هذه الأرض من جيل وزال من مجد أثيل وملك عريض طويل :

وكم نزل القيــل من منبر فعاد الى عنصر في الثرى
وأخــرج من ملكــه عاريا وخلف مملكـــة بالعرا

... وهل نسينا أن القبــر يضحك مــن تزاحم الاضداد ؟ فهكذا تتشابه الأمور فاذا الهزل كالجد واذا الحلم كالعيان !

وشبيه صــوت النعيّ اذا قيـ س بصوت البشير في كل ناد

لا بل هو كل شيء ككل شيء . هو العلم كالجهل والحق كالباطل والهدى كالضلال ..

وقد زعموا الافلاك يدركها البلى فان كان حقا فالنجاسة كالطهر

فعلام اذن يزعج الانسان نفسه ؟ وبأي شيء يحفل ؟ ومــا اجتهاده في التدبير والتقدير وتغيير ما كان بمــا سيكون ؟ الا أننا لنسعد ونشقى عبثــا ، ونسعى ونسكن عبثــا ، ونرجــو ونقنط عبثا ، ونبكي ونضحك عبثا ، ومن وراء ذلك كله هاتف

يهتف بنا في غير رفق ولا رحمة :

«تقفون والفلك المحرك دائر وتقدّرون فتضحك الاقدار»

مرد النكتة

كانت كتابة هذا الفصل بعد طبع خلاصة اليومية باحدى عشرة سنة ، وبعد كتابته بأربع سنوات عقبت على كتاب « في المرآة » للاستاذ البشري الذي يقول في مقدمته :

« ان مرد النكتة الى خلل في القياس المنطقي باهدار احدى مقدماته او تزييفها أو بوصلها بحكم التورية ونحوها بما لا تتصل به في حكم المنطق المستقيم . فتخرج النتيجة على غير ما يؤدي اليه العقل لو استقامت مقدمات القياس ... وهذا الذي يبعث العجب ويثير الضحك والطرب . فالنكتة بهذا ضرب من أحلى ضروب البديع ، ولا يعزب عنك كذلك أن النكتة اذا لم تكن محكمة التلفيق متقنة التزييف بحيث يحتاج في ادراكها الى فطنة ودقة فهم خرجت باردة مليخة لا طعم لها في مساغ الكلام » .

وكان تعقيبي على مقدمة الأستاذ البشري « انه على صواب في جزء واحد من أجزاء هذا التعريف وهو الذي يقول فيه ان الخلل في القياس المنطقي مضحك وأن التزييف والتلفيق داعية من دواعي السخرية . اما الجزء الذي نراه على غير الصواب فيه فهو قوله ان النكتة هي التي تشتمل على الخلل أو على التلفيق والتزييف . لأن اشتمال النكتة على خلل في القياس يسقطها ويلحقها بالهذر والمجانة ، والذي نظنه نحن ان النكتة تضحكنا

لأنها تفضح الخلل وتهتك الدعوى الملفقة وتطلعنا على سخافة العقول التي لا يستقيم تفكيرها ولا تطرد حجتها . ومن ثم تكون النكتة هي المنطق الصحيح وهي الحجة المفحمة وهي البرهان الذي يرجح بالبراهين في معرض الجدال .

« .. وقد يسأل سائل : ولماذا تضحكنا النكتة السريعة ولا يضحكنا القياس المفصل والفضيحة المبسوطة ؟ فجواب هذا قد يوجد في تعليل هربرت سبنسر للضحك ، وهو خير تعليل وقفنا عليه في كتاب المعاصرين ، ولا نقصد هنا الا تعليل حركة الضحك الجسدية لا تعليل أسباب الضحك . فان السبب الذي يذكره برجسون مثلا رجيح صالح لتفسير كثير من علل المضحكات ، ونعني رأيه الذي يذهب فيه الى أننا نضحك من كل تصرف في الانسان يشبه التصرف الآلي الخالي من التفكير ، ونحن مع هذا نقول ان التماس علة واحدة لجميع الضحك خطأ لا يؤدي الى رأي صائب ، لأن الضحك وان كان اسمه واحدا الا انه ليس بظاهرة واحدة حتى يكون له سبب واحد .

« ونعود الى رأي سبنسر بعد هذا الاستطراد فنقول ان الضحك عنده ينشأ من تحول الاحساس فجأة من الأعصاب الى العضلات . فان من المقرر في النفسيات أن الاحساس اذا اشتد وألحف على الأعصاب تجاوزها الى العضلات فظهر عليها في حركة عنيفة أو رقيقة على حسب قوته واشتداده ، فاذا حبس الاحساس في طريقه فجأة تحول بغير ارادتنا من الأعصاب الى أسهل العضلات حركة وأسرعها تأثرا وهي عضلات الوجه والشفتين ثم عضلات العنق والرئتين ، فتتحرك بالابتسام أو

بالضحك أو بالقهقهة أو بالوقوف والاختلاج عند من يغلبه الضحك وتهتز له عضلات الجسم كله . والدليل على ذلك أننا نضحك اذا غلبنا الاحساس وتحول من العصب الى العضل أيا كان الموحي به والباعث عليه . فنضحك من الغيظ والألم ونضحك الضحكة الهستيرية التي يفرج بها المكروب عن أعصابه المكظومة كأنما يخفف عنها بنقل شيء من ضغط الاحساس عليها الى العضلات ... فالضحك هو الانتقال فجأة من الاحساس الى الحركة العضلية ، والنكتة السريعة تضحكنا لأنها تفاجيء التفكير بحالة غير مرتقبة وتعجله عن انتظار النتيجة في طريقها الممهد المألوف . ومن الأمثلة التي أوردها سبنسر للمضحكات منظر جدي يظهر على المسرح فجأة بين حبيبين يتناجيان ... فاحساس النظارة هنا يمشي في طريق الغزل وينتظر ان يمشي فيه الى نهايته المناسبة له ويوجه الذهن الى هذه الناحية . ولكنه لا يلبث أن يلمح الجدي على المسرح حتى يحتبس في موضعه ويتحول على غير انتظار الى ناحية أخرى ، فيندفع الاحساس من الأعصاب الى العضلات وتحدث الحركة التي نسميها الضحك حين يختلج بها الفم والرئتان ... وفي كل نكتة شيء من هذا التحول الذي مثل له سبنسر ، ينجم عن المفاجأة بما ليس في الحسبان ويتلخص في اظهار نتيجة غير النتيجة التي تبدر الى الذهن لأول نظرة من الشيء المضحوك منه ...

« فالنكتة الصادقة هي الحجة التي تظهر لنا فساد الأقيسة المختلفة واضطراب النتيجة التي تأتي في غير موضعها وتلتوي على مقدماتها . وهذه هي النكات التي تفيد النفس لأنها تروّح

عنها وتفيد الذهن لأنها ضرب من المرانة على التفكير السريع وشحذ للفهم وتقويم له على المنطق السديد . ولنكتة واحدة يفهمها الطالب حق الفهم خير من مائة درس في المنطق يقرؤها ويعيدها وهو لا يحسن القياس ولا يفقه الدليل .

« وكتّاب الأوصاف المضحكة يعتمدون في نكاتهم على ملكات كثيرة قد يناقض بعضها بعضا وقد لا يجتمع منها ملكتان لكاتب واحد . فمنهم من يعتمد على ملكة السخر وهو يحتاج الى الذكاء وادراك الفروق وقد يصحبه شيء من الجد والمرارة ، ومنهم من يعتمد على الدعابة وهي تحتاج الى مرح في الطبيعة مرجعه في الغالب الى المزاج لا الى الدرس والتعليم ، ومنهم من يعتمد على الهزل وهو خلق ينشأ عن جهل بتقدير عظائم الأشياء وقد يستحيل الضحك في جلائل الخطوب ، ومنهم من يعتمد على العطف وهو يرضي الانسان عن نقائص الناس ويضحكه كما يرضى الوالد الشفيق عن جهل وليده الصغير ، وخير هذه الملكات واعلاها ملكة السخر يمازجها العطف ، وهي عبقرية لا تقل في اقتدارها على تجميل الحياة وتثقيف النفوس والأذواق عن عبقرية الفلسفة وعبقرية الشعر والتلحين ... »

وقد عن لي غير مرة بعد كتابة الفصل المتقدم عن النكتة (في سنة ١٩٢٧) أن أتوفر على تصنيف كتاب واف أبسط فيه منادح البحث عن مصادر الأحاسيس التي تمتزج بالفنون والآداب: كالاحساس بالجمال، والاحساس بالجلال، والاحساس بالمقدس، والاحساس بالمليح، والاحساس بالمضحك على أنواعه، ولكنني وجدت الوقت يضيق عن استيعاب هذا البحث لضخامته

وصعوبة مسالكه وجدّته في اللغـة العربية وسائر اللغات ، فجعلت المس هذا الموضوع متفرقا من حين الى حين ، وكان أهم ما لمسته في مسألة الفكاهة توضيح أقسام السخريـة من حيث النية ، اذ يكون منها ما يلجأ اليه الساخر كأنه يفتش عن العيوب الانسانية مستريحا الى وجودها وبقائها ، ويكون منها ما يلجأ اليه الساخر آسفا مضطر كالأب الذي يعرف عيوب ولده ويبالغ فيها ويفرط في التأنيب فيقول له انه لا يفلح ولا يرجى وهو في الواقع أول من يرجو له الفلاح ويتمنى لو يكذب ظنه في تلـك العيـوب .

ووقفت بالبحث حيث وقفت في الكـلام على النكتـة ورأى سبنسر وبرجسون فيها ، وأعني أنني وقفت بالبحث كتابة ولم أقف به عنايـة بالموضوع واطلاعـا عـلى آراء خبرائـه وذوي الاختصاص بفنونه ، وكنت كلمـا توسعت في استيعـاب آراء الخبراء وتواريخ هذه البحوث مـن أوائلهـا بـدا لي أن فهـم « المضحك » كما فهمته لأول الأمر مقابلا للمبكي أو المحزن بداءة طبيعية لهذه البحوث ، فان الفلاسفة الذين تكلموا عنـه قبـل أربعة وعشرين قرنا انما تحركوا من هذه النقطة ، فوضعـوا التراجيدية أو المأساة مقابلة للكوميدية أو المهزلة ، وضموا الجد والبكاء جميعا في تعريف المأساة كما ضموا الهزل والعبث جميعا في تعريف المهزلة ، وكذلك فعل أفلاطون وفعل أرسطو من بعده واقتدى بهما كل من تصدى لتحليل فنون المسرح والشعر عامـة مع قواعد الخطابة والبلاغة في جميع هذه الأغراض .

يبدأ فهم المضحكات على هذا النحو الذي تغلب عليـه المقابلة

الاسمية بين الضحك والبكاء ، ثم يتفرع الضحك ويتشعب وتلوح منه الأفانين التي لا يقابلها البكاء في كل حالة ، بل يدخل فيها ويحسب منها في بعض الحالات ..

الفيلسوف الباكي والفيلسوف الضاحك

وقبل أن نأخذ في تلخيص آراء أفلاطون وأرسطو لا ننسى من السابقين لهما في تاريخ الفلسفة اليونانية اسمين متناقضين كان كلاهما مادة من مواد الضحك وشاهدا من الشواهد التي يسوقها المعنيون بتعريفاته وتقسيماته ، وهما الفيلسوف هيرقليطس المولود في القرن السادس قبل الميلاد ، والفيلسوف ديمقريطس المولود في القرن الذي يليه .

فالأول كان يلقب بالفيلسوف الباكي لأنه كما زعموا كان دائم البكاء لا ترقأ له عين ولا يبتسم له ثغر ، ولا يزال ناعبا على قومه سوء ما صنعوا وما يصنعون من أمورهم العامة والخاصة .

والثاني كان يلقب بالفيلسوف الضاحك لأنه كما زعموا كان دائم الضحك لا يكف عن الابتسام أو القهقهة ولا يكرثه خطب من الخطوب جل أو هان ..

وقد قال جوفنال الشاعر اللاتيني الساخر ان العجب لهيرقليطس أعظم من العجب لزميله ، فان دوام الضحك ـ صحيحا أو متكلفا ـ لا يشق على أحد يريده ، وأما العجب كله فمن ذلك الفيلسوف الذي يجد في عينيه معينا لا ينضب من

الدموع ويحزن جدا أو يتكلف الحزن تمثيلا ولهوا حيثما وجد مع النـاس .

والقصة كلها « مزدحمـة » بشواهد الضحـك ومعارض البحث في حقائقه وأكاذيبه ..

فمن من الرجلين يا ترى أدعى الى الضحك عند الناظريـن اليـه ؟ ..

أنضحك من دائم البكـاء أم نضحك من دائـم الابتسـام والقهقهـة ؟

يخيل الى الأكثرين أن الرجـل الذي لا ينقطع بكاؤه أدعـى الى الضحك من الرجل الذي لا ينقطع ضحكه وابتسامه ، وأنهما ـ بعد ـ موضوع صالح جدا للدعابة والسخرية .

وأول ما يرد على الذهن من أسباب ذلك أن الضحك الدائم والبكاء الدائم كلاهما غير معقول .

وهنا نذكر أن الانسان حيوان ناطق وحيوان ضاحك ، وانه استأثر بالنطق وبالضحك ، لأنهما مقياسان مشتركان للعقـل وللمعقول ... وهنا نذكر أيضا أن النكتة وسيلة لاظهار الخلـل المنطقي وان كل الفرق بينهما أن النكتة تفاجئنا باظهار الخلل وان الدليل المنطقي يسترسل في اظهاره بغير مفاجأة ..

ثم يرد على الذهن أن الضحك الدائم والبكاء الدائم كلاهما افراط وخروج من الجد الى ما عداه ، وما عـدا الجـد يلتقـي بالضحك ولو في بعض الطريق ..

وغني عن القول أن الفيلسوفين لم يكونا على الصفة التـي

تفهم من كلمة الفيلسوف الباكي والفيلسوف الضاحك ، وانهما تعرضا لهذه الزيادة في الوصف لأنهما مبالغان أراد النـاس أن يكشفا هذه المبالغة منهما فوصلا بها الى غايتها المستحيلـة ، وصنعا لهما بذلك الوصف صورة هزلية تشبـه الصور التـي يتعمد فيها الرسامون الفكاهيون ابراز الملامح الشاذة بتكبيرها والخروج بها عن جميع مألوفاتها .

ولقد كان هيرقليطس يترجم عن سخطه أحيانا بحركـات صبيانية ليست من البكاء ولا الحزن في شيء ، فكان يلعب مـع الأطفال ليسأله الشيوخ فيجيبهم بأن الاطفال أعقل منهـم في تدبير اللعب ، لأنهم لم يصنعوا في ألاعيبهم مـا صنعه الشيوخ المحنكون في أحق الأمور بالجد والرصانة .

وكان ديمقريطس يسيـح في الأرض من بـلاده الى مصر والحبشة وفارس والهند وكل قطر معمور ، وكانت الدنيا على أيامه قائمة قاعدة تهون فيها مصائب الآحاد الى جانب المصائـب التي تحيق بالدولَ والشعوب ، فكان يضحك من أولئك الذيـن يستسلمون للاحزان ولا يعتبرون بما حولهم من عادات الزمن وصروفه حيث ارتحل وحيث أقام ، وقيل من نوادر جرأتـه بالسخرية أنه اجترأ بها على « دارا » جبار الفرس وهو يسيح في بلاده ، فان هذا الجبار أحزنه أن تموت له جارية يحبها فوعده ديمقريطس باحيائها بعد دفنها ، وقال له ان الأمـر لا يتطلب اكثر من كتابة ثلاثة أسماء على القبر فتعود الجارية الى الحياة ، وسأله « دارا » في لهفة : « ومـا تكون هذه الأسماء ؟ » فأجابـه الفيلسوف وهو يصطنع الجد : « أسماء ثلاثة لم يفقدوا أحدا من الأعزاء » ..

وكان هذا هو العزاء ..

ولا ريب أن البديهة الانسانية كانت من قبيل الحديد الذي يفل الحديد . فهي التي لقي منها الفيلسوفان جزاءهما من جنس العمل : سخر كلاهما من قومه فأرسله قومه في التاريخ على ذلك « الكاريكاتور » بين ضاحك دائم الضحك وباك دائم البكاء .

وهذا أيضا باب من أبواب المضحكات التي انطوت عليها قصة الفيلسوف : باب الصورة الهزلية أو الكاريكاتور .

ثم يجيء الشاعر الساخر جوفنال فيغمض باختياره عن هذه المبالغة لأنها توافق « القافية » كما تقول في النكتة العربية ، وما كان للشاعر الساخر أن يجد بين يديه هاتين الصورتين ثم يردهما الى سواء الخلقة ليضيع منه المجال الصالح للتهكم على الموصوفين والواصفين .

فلسفة الضحك

على أن هذين الفيلسوفين المضحكين قد زودا فلسفة الضحك من سيرتهما ورسمهما بزاد لم تتزوده تلك الفلسفة من عقلين كبيرين كعقلي الفيلسوف أفلاطون وتلميذه الفيلسوف أرسطو وهما أعظم فلاسفة اليونان ، ولم يعرض لفلسفة الضحك بعدهما عقل أكبر من عقليهما الى اليوم ..

وكان خليقا بأفلاطون وأرسطو أن ينفذا الى جوهر الموضوع في فلسفة الضحك وأسبابه لو أنهما قصدا الى الموضوع في صميمه ، وأرادا أن يستوعبا الفروض والاحتمالات في أسباب

الضحك وأنواع المضحكات ، ولكنهما لم يقصدا هذا المقصد ولم يتكلما عنه الا عرضا في سياق البحث عن المدينة الفاضلة والبحث عن الشعر وأقسام الروايات الشعرية .

فأفلاطون ذكر المضحكين والمضحكات وهو يبحث عن مكانهم في مدينته الفاضلة أو جمهوريته المثالية التي أراد أن يقصرها على الأفاضل والمأمونين وأن يجنبها عوارض النقص والرذيلة ، فبدا له أن الشعر موكل بالجانب الضعيف من الانسأن بغير تفرقة بين شعر المأساة وشعر الملهاة .

فالانسان الكريم يأبى أن يستسلم للبكاء اذا أصيب في عزيز عليه ولكنه لا يبالي أن يبكي وأن يحزن اذا رأى هذا المنظر معروضا عليه في رواية فاجعة ، لان البكاء يخدعه في هذه الحالة ويوقع في روعه أنه يبكي لغير مصابه ويغلب على نفسه في سبيل غيره .

والانسان الكريم يأبى أن يفوه بالأضاحيك أو الخبائث المضحكة ولكنه يستسلم للضحك اذا سمعها محكية في رواية هزلية يمثلها المسرحيون أمامه ..

وليس بالحسن على كل حال أن يكون في الجمهورية الفاضلة انسان يغلب على وقاره ضحكا أو بكاء بله الاناسي الذين يصورون الارباب في عليين مغلوبين على هذه الصورة ، ويقول أفلاطون ان الانسان الكريم لا يعرف الجد الا بالهزل وأنه من الحسن أن يشهد مناظر الهزل من العبيد والأجراء المسخرين ولا ينغمس فيها بنفسه . وقد أثنى على المصريين لأنهم يعلمون

الأبناء الموسيقى والرقص قياما بالشعائر الهيكلية ولكنهم لا يسمحون للشعراء بخلط الألحان بالأغاني المبتذلة والقصائد الموزونة على رقص الخلاعة والمجون ، وقد كانت خلاصة رأيه في كتاب الجمهورية وكتاب القوانين أن الشعراء يحسنون صناعة الشعر ويستحقون من أجل ذلك أكاليل الغار ولكنهم يلبسونها ويخرجون من المدينة الفاضلة الى حيث يشاءون ..

ولم يذكر أفلاطون سبب الضحك الا في كلمات قليلة خلال هذه المباحث الأخلاقية ، وهو يرى في تلك الكلمات ان الضحك مرتبط بالجهل الذي لا يبلغ مبلغ الايذاء ، وان الشعراء يضحكوننا حين يحاكمون أولئك الجهلاء ، ولكنهم اذا طرقوا موضوع الملحمة أو المأساة عظموا الطغيان وجعلوا رواياتهم حكاية لأعمالهم ، فلا أمان لهم في محاكاة الجهل ولا في محاكاة الطغيان .

وأرسطو أدق من أستاذه في تعبيراته عن أقسام الشعر لأنه وضع فيها مبحثا خاصا تتبّع فيه المسرحيات المضحكة من أصولها منذ كانت ضربا من الهجاء والأغاني الشهوانية الى أن أصبحت موضوعا للاضحاك والتسلية ، ولهذا جاءت في الترجمات العربية باسم الأهاجي والتهريجات ولم يبتدعوا لها اسما يقابل اسم « الكوميدية » كما صنعنا في العصر الحديث ، اذ سماها بعضهم بالمهزلة وبعضهم بالملهاة وعربها بعضهم بلفظها اليوناني فسماها الكوميدية .

وعند أرسطو أن المضحك ضرب من الذميم أو المشوه لا

يبلغ درجة الايلام أو الايذاء، وفي نبذة منسوبة اليه من رسالة مقطوعته طبعها كيبل Kaibel في برلين سنة ١٨٩٩ يقـول ان الملهاة تطهر النفس كما تطهرها المأساة ، لأن النفس المطبوعة على الرحمة أو على حسن الذوق تجد في المأساة والملهاة منصرفا لما تنطوي عليه من العطف والشوق الى الكمال واجتناب التشويه.

وكلا الفيلسوفين قد تطرق اليـه الخطأ من فهـم المأسـاة والملهاة على أنها نوع من التقليد والمحاكاة ، لأن الشعر المسرحي يعرض الفواجع بتمثيل أناس يحاكون المصابين بها في حركاتهم وأقوالهم ، وكذلك يفعل بالمضحكات والملهيـات .

وأفلاطون من أجل هذا ينزل بالمقلدين الى الدرجة الثالثة ، فيقول ان الصورة الفضلى هي صنعة الله ثم يحكيهـا الصانـع الخبير بالصناعة ، ثم يأتي الشاعر فيحكي عمل هذا الصانـع حكاية بعد حكاية .

ولم يلتفت أرسطو الى منزلة الشعراء المقلدين الا في سياق كلامه عن الأخلاق والاستطراد منـه الى أخـلاق الهجائيـن أو الدمامين ، فلم يكن من همه أن ينشيء مدينة فاضلة يبيح المقام فيها لأناس ويحرمه على آخرين .

وليس في هذا الخطأ عيب على عقل الفيلسوفين الكبيرين ، لأنهما بادئان في طريق لم يسبقهما اليها سابق مـن الخبراء أو غير الخبراء ، ولكن العجيب منهما حقا ان يحسبا الفن تقليدا أو محاكاة ولا يحسباه خلقا وابتداعا من الشاعر على التخصيص ، مع أن كلمة الشاعر تفيد معنى الصانـع أو الخالـق باللغـة اليونانيـة .

ونقول ان هذا عجيب من الفيلسوفين حقاً لأنهما كانا يستطيعان أن يعلما أن وصف كرسي في الشعر أصعب من عمل كرسي بصناعة النجارة ، وأن النجار الذي يعمل الف كرسي لا يستطيع أن ينظم بيتا واحدا من القصيدة التي تنظم في وصف أحد كراسيه ، وهكذا يستطيع الرسام ان يصور كوبا من الفخار ولا يستطيع الفخاري الذي يصنع الآنية الفخارية جميعاً أن يخرج صورة لكوب صغير منها .

وقد زاغ هذا الفهم الخاطىء بالفيلسوفين عن أسباب الضحك في تفصيلاتها ، لأنهما التفتا الى فكرة التقليد فجعلها أحدهما اسفافا دون صناعة الصانع ، وجعلها الآخر طلبا للمعرفة يكاد أن يتساوى فيه المقلد ، ومن يشهد التقليد ويسر بالنظر اليه ، ولم ينظر كلاهما بعين الشاعر لينفذ الى مواطن الضحك فيما يتحراه من الصور المضحكة ومن تنويع عرضها وتمثيلها ..

لكنهما على هذا الخطأ الذي لا ينجو منه كل مبتدىء قد نجحا في التعريف بسبب الضحك نجاحا غير قليل ، لأنه كان أساساً لما بناه التابعون كما كان أساسا لنقد الناقدين .

فالقول بأننا نضحك من العمل لأنه ينم على جهل لم يبلغ درجة الايذاء والايلام ، أو اننا نضحك من العمل لأنه يعرض لنا تشويهاً لم يبلغ هذه الدرجة ــ كلاهما قول يؤخذ به للمناقشة والتعقيب و لايرفض كله جملة واحدة في تعريف من تعريفات المحدثين .

وكل ما نعترض به على التعريفين ان الانسان قد يتبلد

شعوره عن الألم والضحك في وقت واحد ، فليس كل انسان يرى التشويه ولا يؤلمه يضحك منه ، لأنه قد يكون بليدا يخفى عليه التشويه والألم في آن .

وانما الخلو من الألم شرط لكل استمتاع بشيء من الأشياء حتى ما كان من قبيل المتعة المادية ، اذ كان الألم على الأقل صارفا للشعور عن سبيل المتعة ، ان لم يكن مناقضا للشيء المضحك أو المشي الجميل أو للشيء الجليل .

ونضرب المثل لذلك بانسان مشوه ينظر اليه صاحب الاحساس المرهف فيدرك ما يعانيه ، وينظر اليه الطفل الغر أو الرجل الجلف فيهزأ به أو يولع به للضحك منه واضحاك الناس عليه .

فلا يجوز أن نفهم من ذلك أن الرجل الحساس غير صالح للضحك وغير خبير بالمضحكات ، لأنه قد يحس منها ما يجهله الأطفال الاغرار والرجال الأجلاف . بل يجوز أن نقول ان الطفل الغر والرجل الجلف لا يعرفان ما يضحك ولا يعرفان ما يؤلم في وقت واحد ..

ونلدر من فلاسفة القرون الوسطى من نظر الى الضحك نظرة جدية ورآه في حكمه جديراً بالبحث عنه وعن أسبابه ، لانصرافهم الى البحث في الأصول الدينية وأسرار ما وراء الطبيعة ، ولعل فلاسفة اليونان الأقدمين كانوا على هذا الرأي ولم يبحثوا بعض البحث في الضحك وأسبابه الا في طريق بحثهم عن التراجيدية والكوميدية مع رجوع هذه في أساسها الى سير

الأرباب وشعائر الدين ومحافل الأعياد الوثنية .

الا أننا قد نعثر بين الآونة والأخرى على فيلسوف من فلاسفة القرون الوسطى بحث في معنى الضحك لاتصاله من بعض أطرافه بمباحثه الأخلاقية أو اللاهوتية ، وأحق هؤلاء بالالتفات الى رأيه في هذا المبحث هو « يوسف البو Joseph Albo » (١٣٨٠ ـ ١٤٤٥) ، و « توماس هوبز Thomas Hobbes » (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩) .

فيوسف البو فيلسوف اسرائيلي ممن درسوا فلسفة الاندلس الاسلامية واقتبس منها فيكتابه عن المبادىء والأصول، وتكلم عن الضحك لأنه مذكور في كتب التوراة ومنسوب الى الأنبياء ومنهم ابراهيم الخليل .

قال : « الضحك ـ وبالعبرية سحوق ـ كلمة مرادفة لكلمات في معناها ، تدل على الفرح كما جاء عن ابراهيم انه خر على وجهه وضحك ، ومعنى ذلك انه كان فرحا بما سمع .

« وقد يدل الضحك على السخرية والاستهزاء كما يقول القائل : انني ضحكة للجار ، وربما امتزج معنى الضحك والسخرية كما جاء ان الذي يستوي على السماء ـ الله ـ يهزأ بهم . اذ كان الضحك أحيانا دليلا على الشعور باحتقار من يستحق الاحتقار ، وهكذا يشعر من يلحظ نقصا في كلام أحد أو عمله ويشعر بتفوقه عليه لأنه لا يقع في مثل ذلك النقص ، فانما يتولاه الضحك لأنه يرى الآخر يقول أو يعمل ما لا يجمل بالانسان ووقاره .

« وعلى هذا النحو ينسب الضحك الى الله في التعبير المتقدم ، وسببه انه يسمع القائلين يقولون : هلموا نمزق شملهم ، وهي كلمات لا يجمل بالبشر أن ينبسوا بها ، على حد قول الربانيين ان سبب المشابهة بين نشيد أبسالوم واخبار يأجوج ومأجوج أنه لو سأل سائل : هل من الممكن أن يتمرد العبد على مولاه ؟ لكان الجواب : وهل من الممكن أن يتمرد الولد على أبيه ؟ .. وقد حدث هذا فمن الممكن اذن أن يحدث ذاك .

« وواضح من ثم أن ذلك المقال مما لا يحسن بانسان أن يقوله والا كان أهلا للازدراء والسخرية . وبهذا المعنى ينسب الضحك الى الاله والى الانسان ..

« ويضحك الانسان أحيانا اذ يخدع غيره في أمر كان ينبغي أن يحذره المخدوع وينتبه اليه . ومن ثم يرجع سبب الضحك في جميع الحالات الى الشعور بالتفوق في نفس الضاحك حين يرى غيره يقع في حماقة وأمر ينبىء عن جهالة . ويقول العلماء ان الضحك خاصة انسانية كما يقولون ان أسبابه مجهولة ، ويعنون بذلك اننا لا نعلم لماذا يكون الضحك مصحوبا بحركات جسدية معينة ولماذا يحدث الضحك عند لمس الابط أو بعض المواضع الحساسة من الجسد . على أن حدوث الضحك من السخرية معروف جد المعرفة كما بينا في شرح الآية ... »

وظل هذا الرأي مأخوذا به في تفسير الضحك الى أوائل العصور الحديثة ، وهو على التقريب رأي الفيلسوف الانجليزي توماس هوبز الذي يرجع بكل خليقة أو عاطفة ترضي الانسان

الى شعوره بالقوة والامتيـاز والرجحـان ، ويرى أن الأخـلاق المحمودة تدل جميعها على القوة في صورة من صورها .. فالكـرم والشجاعة والصبر والعزة والفضائـل جميعهـا لا تنـال حمد الانسان ما لم تكن مقرونة بالقدرة والدلالة عليها ، وتتسـاوى الأخلاق النبيلة والعواطف الرفيعة في هذه الخصلة ، بل تتساوى فيها الأعمال الارادية وغير الارادية كالضحك في صورته العقلية وصورته الجسدية . فانما يضحك الضاحك لأنه يحس من نفسه انتصارا مفاجئا أو مزية مفاجئة ، ولا بد من شعور النصـر أو الامتياز فيما يضحك الانسان ويرضيه ..

وهذا هو الرأي الذي توافقت عليه أقـوال المتكلمين عـن الضحك من عصر الفلسفة اليونانيـة الى العصر الحديث ، ولا حاجة الى انتظار التعقيب الأخير على جملة الآراء لاظهار الخطأ في هذا التعليل الذي يصح في جانب واحد من المضحكات ولا يصح في جميع جوانبها . فان الانسان قد يضحك أحيانا حين يشعر أنـه قد انخدع كما يضحك من غفلة غيره حين تجوز عليه الخديعـة البينة ، وليس في هذا دليل على الشعور برجحانه بل هو دليل على شعوره برجحان غيره عليه .

والمثل القريب على ذلك ما تقدم عن الضحك «الاجماعي» في مؤتمر الساسة الذين جلسوا لتضييق الخناق على نابليـون ثم جاءهم الخبر فجأة بانطلاقه من جزيرة البا وعودته الى فرنسا . فهذا موقف مغلوبين لا موقف غالبيـن ، ولا يستقيـم تفسيره بشعور الرجحان أو الانتصار من جانب الضاحكين ..

وكل ما يثبت في جميع الحالات أن هناك مفاجأة وأن المفاجأة

تخالف الحالة المطردة أو الاتجاه الذي يجري فيه الشعور ، وبهذا يسهل تفسير الضحك ممن جلسوا ينظمون القارة الآوربية بعد اعتقال نابليون كأنما هذا الاعتقال أمر مفروغ منه ، ثم تقع المفاجآة بما يخالف الحسبان .

افراط المحدثين

واذا كانت الشكوى من الثقافة القديمة قلة البحث في الضحك وأسبابه فقد يكون الافراط في هذا البحث شكوى القارىء من الثقافة الحديثة ، لأنها توشك أن تتطلب منه تخصصا ثقافيا مقصورا عليها ، وقد أثبت برجسون نحو أربعين مرجعا من الكتب والأصول ألمّ بها في رسالته عن الضحك ، ويمكن أن يزاد عليها ثلاثة اضعافها من المراجع المتفرقة عن فلسفة المضحكات عامة أو عن موضوعات الفكاهة والنكتة في مزاج هذه الأمة أو تلك أو في آدابها ومأثوراتها .

ويعود هذا الافراط في الكتابة عن الضحك الى باعثين جديدين في العصور الحديثة : أحدهما نشأة علم الذوق أو علم الجمال الذي ينظر في الفروق بين الجميل والجليل والمضحك كما تعرضها الفنون الجميلة ولا سيما التمثيل ، وكأنما كان اهتمام المحدثين بالتمثيل ورواياته وأدواره تجديدا لاهتمام أفلاطون وأرسطو بالتراجيدية والكوميدية وملكات الشعراء الذين يكتبون في المحزنات والمضحكات والملاحم الكبرى عن الأرباب والعبادات وما استطردت اليه من موضوعات لا علاقة لها بالدين

وقد تناقضه وتخالف الأدب الواجب للمعبودات وشعائر العبادة .
فان عودة الأدب المسرحي في العصور الحديثة كانت فاتحة البحوث الفنية والفلسفية في الموضوع من جميع جوانبه وأطرافه ، فكان البحث فيه عن المضحك والمبكي والحسن والقبيح مقروناً بالبحث عن المقدس والقداسة في شعور الانسان وفي الكائنات شعراً ونحتاً وتصويراً أن توضع لها الحدود والتعريفات وتقام الفواصل بينها وبين ما يلتبس بها من المتشابهات أو المتناقضات.

هذا أحد الباعثين الجديدين الى افراط المحدثين في الكلام على الضحك وتعليل أسبابه وتطبيقه على الفنون المتجددة في الحديث .

أما الباعث الآخر فهو شيوع البحث في التطور ومذهب النشوء .. فان هذا المذهب يفسر تعبيرات الانسان عن خوالجه وعواطفه بما يوافق طبيعته الحيوانية ، ويتقضى وجوه الشبه ووجوه الاختلافات بينه وبين سائر الأحياء في هذه التعبيرات ، ويراقب ملامحه ليربط بينها وبين وظائفه الجسدية واستعداد هذه الوظائف لتلبية العوامل الداخلية والعوامل الخارجية .

ولا يسع الانسان الا أن يبتسم لتناقض النتائج التي وصل اليها أقطاب هذا المذهب بعد بحثهم في ظاهرة الضحك والفكاهة .
فان العالمين العظيمين اللذين توافيا — بغير التقاء بينهما — الى تحقيق ظواهره وشواهده قد ذهبا الى الطرفين المتقابلين في تعليل الضحك والفكاهة .

فمن رأي « الفرد رسل ولاس « Alfred Russel Wallace أن الضحك وسائر الخصائص الانسانية التي ينفرد بها النوع

الانساني لا تقبل التفسير بالانتخاب الطبيعي وتطور أنـــواع الحيوان ، وهو يتساءل كيف يفسر لنا الانتخاب الطبيعي ملكـات الرياضة والموسيقى والاحساس بمـا فوق الطبيعـة ؟ ويعود فيقول ان ملكة الفكاهة من هذا الطراز بين الخصائص الانسانية، لأنها تحتاج جميعا الى تفسير غير تفسير الصراع على الحيـاة وتنازع البقاء ، ولو كانت من هذه الأسلحة في النوع الانساني لما كان مفهوما كيف يتجرد منها معظم الناس ولا تتوفر لغير العدد القليل منهم في أرقى الحضارات ، ولا كان مفهوما كيف يتجرد منها الهمج والأوائل الفطريون كمـــا يتجرد منها الاكثرون بين المتحضرين ، فهي كما قال في تطبيقه المذهب الدارويني عـــلى الانسان أخلق بأن تفسّر بالمنحة الالهية التي يختص بها الخالــق بعض الطبائع الموهوبة ، ولن تقبــل التفسير بغيــر ذلــك ولو باعتساف شديد .

ومن رأي داروين أن الضحك قد يوجد بمعزل عن التفكير كما يلاحظ على البلهاء وصغار الأطفال الذين يضحكون ليعبروا عن حالة الرضى والارتياح ولا يصحبون ذلك بفكرة أو خاطرة ذهنية ، والأصحاء مـن الراشدين تعتريهـم حـالات الضحك لأسباب غير أسبابه في الطفولـة . ويصدق هذا عـــلى الضحك ولكنه لا يصدق على الابتسام . وكأنما يعبرون بالضحك عـن حالة مقابلة لحالة البكاء الذي يقترن بالشدة والكآبة العقلية كما يقترن بالخوف والغضب . ولعل شيئا من الغرابة المفاجئة مـع شيء من الشعور بالتفوق هو أشيع الأسباب لضحك الكبـــار الراشدين . ومن الواجب ألا تكون الظروف على جانب عظيم من الخطر والجسامة ، فان الرجل الفقير ــ مثلا ــ لا ينتظر منه أن

يضحك اذا سمع فجأة انه كسب مقدارا كبيرا من المال ، ولكن العقل اذا هاجه الشعور بالمسرة وطرأت عليه خاطرة صغيرة غير متوقعة فالنشاط العصبي يفرج عن نفسه بتحريك العضلات تلك الحركة التشنجية الخفيفة التي نسميها الضحك .

قال في كتابه عن تعبيرات العواطف في الانسان ان الجنود الألمان أثناء حصار باريس كانوا يندفعون الى الضحك لكل تفاهة من تفاهات النكتة بعد طول التعرض للخطر الشديد ، ويقول مستر هنتون من سان فرنسيسكو انه كان يتناوبه الصياح والضحك وهو على التلال عند الباب الذهبي معرض لأفدح الأخطار ، وهكذا يشاهد على الأطفال الصغار وهم يهمون بالبكاء أن بكاءهم يتحول الى ضحك حين يطرأ أمامهم طارىء غير متوقع ، مما يفهم منه أن الضحك يفيدهم في تصريف فيض الجهد العصبي الذي يحسونه على تلك الحال .

وينظر داروين الى أسلوب المجاز حيث يقول القائل ان الخيال دغدغته فكرة مضحكة ، فيلاحظ أن دغدغة الخيال مماثلة لدغدغة الجسد ويتخذ المثل من ضحك الأطفال و « تشنج » أجسامهم الصغيرة بفعل الدغدغة ، ثم يلاحظ أن القردة العليا تبدر منها أصوات مرددة في مثل هذه الحالة ، ويعود فيفرق بين الضحك من فكرة مازحة والضحك من أثر الدغدغة الا في أمر واحد هو أن يكون الفكر في حالة راضية ، فكما أن الطفل يصيح اذا دغدغه رجل غريب واشتدت عليه حركة الدغدغة كذلك ينبغي أن يكون الفكر بعيدا من الجفوة والشعور بالاكتراث والاهتمام . وتحدث الدغدغة الجسدية في المواضع التي لا تتعرض كثيرا للمس ولا يكون موضع الدغدغة معروفا قبلها ،

وكذلك تحدث الدغدغة الفكرية من خاطر غير معهود ولا معروف قبل ذلك ، ويبدو ان عنصر الطروء أو المنافرة الذي يجري في سياق التفكير هو العنصر القوي في تكوين المضحكات ..

ثم يراقب داروين عوارض الضحك على الوجه والجسم ويحصيها احصاء دقيقا في تتابعها على حسب الرخاوة أو العنف في الشعور ، ويقرر أن الشعور العنيف كله يتخذ تعبيرا واحدا في حالتي الحزن والسرور وأن مشاهدة ذلك ميسورة لمن يراقب العصابيين (الهستيريين) والأطفال لسرعة تأثرهم بأنواع الاحساس ، فانهم يتراوحون بين الضحك والبكاء في الوقت الواحد وينتقلون من الشعور الى نقيضه لأنهما عندهم متقاربان. وشأن القبائل الفطرية عند داروين كشأن الأطفال في هذه الخصلة ، لأنه رأى في جزر ملقة نساء يبكين اذا أغربن في الضحك ، وروى أقوال السائحين عن سكان استراليا الأصلاء فقال انهم يقفزون ويصفقون وتغرورق أعينهم بالدموع وهم مرحون ضاحكون ، ثم قال ان الاستراليين والأوربيين يتشابهون في ضحكهم جميعاً من رؤية المحاكاة . ومن القبائل الفطرية في جزيرة سيلان أناس لا يضحكون لمنظر قط من المناظر المضحكة ــ فيما رواه « هارتشورن Hartshorne » ــ لأنهم يقولون اذا سألوا مستغربين : وما الذي يدعو الى الضحك في هذا أو ذاك ؟ .. الا أن الابتسام والضحك في جميع الأمم يجريان في مسلك واحد فلا يستطاع وضع الحد الحاسم في الحركات أو المعاني بين دواعي الضحك ودواعي الابتسام ..

وظاهر من دراسة داروين كلها للتعبيرات الانسانية

والحيوانية أنه يتجه بمراقبته الى العوارض الجسدية التي تعم جميع بني الانسان وقد تعم بعض الحيوان في بعض الأحـوال ، والعوارض الجسدية أدق لديه مـن العوارض الأخـرى التي لا يسهل ضبطها وتعميمها ولا يسهـل كذلك تعليلهـا بالانفعالات المشتركة بين الناس من جانب وبين الناس والأحياء العليا مـن الجانب الاخر ، وهو على خلاف زميله في مذهب النشوء والتطور ــ الفرد ولاس ــ موكل بالتعميم والأشباه الشائعة دون تلـك الملكة الخصوصية التي يرى صاحبه أنها مزية محدودة لا يفسرها تنازع البقاء كأنها ملكة الادراك الرياضي والبداهة الموسيقية وما اليها . فبينما يهبط داروين الى عوارض الضحك التي يقل فيها التفكير كضحك الأطفال والعصابيين والقبائل الفطرية ــ يرتفع ولاس الى ملكة الفكاهة العالية التي يمتاز بها آحـاد من النوابغ قلما يزيد عددهم عـلى عدد العباقرة الذين يكشفـون خفايا الحقائق الرياضية ودقائق النسب الموسيقية ، ويعلمـون الناس كيف يفهمونها ويدركونها بعقولهم وبصائرهم فلا يتيسر للكثيرين أن يجاروهم على فهمها وادراكها .

والنزعة الوجدانية هي سر الاختلاف في النظرة الى المضحكات بين العالمين الكبيرين. فداروين يبحث عن وحدة الأنواع الحيوانية فيهبط الى مواطن الشبه بين أرقى الأحياء وأقل الناس ويعقـد الصـلة بين هؤلاء وهؤلاء بوحـدة العوارض الجسديـة التـي تصاحب الضحك من تأثير الدغدغـة أو تأثـير المشاهـدات الحسية ، ويعنيه أن يراقب عوارض الدغدغة في القردة التـي تتأثر بعض المواضع في أجسامها باللمس المفاجيء عـلى غير المألوف ..

وكل هذا لا يفسر الملكة التي يعنيها زميله ولاس ويعلو بها الى الطبقة التي ينفرد بها الآدميون بل ينفرد بها آحاد من الآدميين، لأن نزعته الوجدانية تتجه الى الايمان بالروح الالهي ومزاياه التي يفيضها على الأرواح الانسانية كلما تهيأت لها بهداية السماء .

ولم يزعم داروين أنه فسر الضحك كله واستوعب الكلام في أسرار المضحكات على اختلافها ، وانما أراد منها ما تثبته التعبيرات المحسوسة وتطرد فيه الملاحظة اطرادا يقبل التعميم .

ويقال هذا أيضا عن الفلاسفة الذين درسوا الضحك من ناحية علم الذوق أو علم الجمال . فانهم تناولوه من وجهة المقابلة بينه وبين الأحاسيس الجميلة أو الجليلة أو المقدسة ولم يستوعبوا أصوله وتفريعاته في دراسة مستقلة تحيط به في معانيه الفنية ومعانيه الحيوية .

فخلاصة رأي « كانت Kant » ان الضحك ينشأ من التوقع الذي ينتهي فجأة الى غير طائل ، وخلاصة رأي شوبنهور أن الضحك في جميع الأحوال نتيجة للمفاجأة بادراك عدم التناسب بين الشيء المضحك والشيء الذي يخطر على البال أنه يشبهه ، وخلاصة آراء الباحثين في الجميل والجليل عامة أن المضحك هو النزول بالجليل ـ أو الوقور ـ فجأة الى الابتذال والاسفاف ، وأنه في جملته نوع من الحطة Dégradation يسرع الذهن في الالتفاف اليه ..

وليس من اليسير أن نستقصي هنا كل ما قيل في تعريفات

الضحك وأسبابه ، فان الجمع الذي يدل على طائفة قليلة من نماذج التفكير أجدى من احصاء التفصيلات التي تتبعثر بغير رابطة بينها تدور على محور معلوم ..

ونرى أننا قد نستغني عن تتبع الآراء المبعثرة في تعليل الضحك اذا اجتزأنا منها بتلخيص ثلاثة آراء نموذجية هي رأي سبنسر العالم الانجليزي وبرجسون الفيلسوف الفرنسي وفرويد الطبيب النمسوي صاحب مذهب النفسانيات الحديث .

فرأي سبنسر رأي عالم نشوئي يفصل رأي داروين وينقحه ويزيد عليه من الوجهة العلمية الطبيعية .

وبرجسون فيلسوف ينظر الى الوجهة الاجتماعية ولا يهمل الوجهة الفنية ، وان كان يوجزها ولا يستقصيها .

وفرويد ينظر الى الدخائل النفسية مع ارتباطها بالمجتمع وعلامات الصحة والمرض في الآحاد .

وقل أن يوجد رأي في الضحك لا يلتقي بهذه الآراء في جزء من الأجزاء ..

ثلاثة آراء في الضحك

كتب سبنسر رأيه بعنوان فزيولوجية الضحك :

The Physiology of Laughter

وهو عنوان يدل على مدار البحث كله ، ويؤخذ منه أن الباحث أراد أن يفسر عوارض الضحك الجسدية وارتباطه بالأفكار والأحاسيس التي تستدعيها ..

وفكرته تشابه فكرة داروين في أساسها ، ولكنه يخالف القائلين بأن الضحك محاولة عضلية للتخلص من شعور مكرب أو غير محتمل ، ويخالف القائلين بان الضحك يتولد من الشعور المفاجىء بالغبطة والرضى عن النفس بما يوحي اليهما من السلامة أو الرجحان .

ويقول سبنسر أن هذا كله قد يحدث ولا يحدث معه الضحك ، وأنه لا بد لتمام العوارض جميعا من التحول المفاجىء من سياق الى سياق في وجهة الشعور ..

يشتغل الموسيقي بتوقيع قطعة من ألحان موسيقى بيتهوفن مثلا فيعطس أحد الحاضرين عطسة قوية يسمعها الحاضرون خلال التوقيع ، فيضحكون .

ليس في الاستماع الى الموسيقى شعور مكرب تتخلص منه

النفس بالضحك ، ولكن الذي حدث أن العطسة غيرت مجرى الشعور أو حبسته عن المضي في طريقة المألوف ، فتنقله هذه المفاجأة من أعصاب الحس الى العضلات ، ويحدث الضحك من جراء هذا الانتقال .

ويقف العاشقان على المسرح يتناجيان ويتغاضبان أو يتراضيان ، واذا بجدي يضل طريقه ويذهب الى العاشقين فيقطع عليهما وعلى النظارة هذه المناجاة ، فيحدث من هذه المفاجأة ما أحدثته العطسة القوية أثناء سماع الموسيقى ، ويضحك النظارة الذين كانوا يرقبون منظر المناجاة ولم يكن فيه ما يكربهم أو يحبون التخلص منه بالضحك ، وانما يغلبهم الضحك لانتقال الشعور من وجهته المطردة ، ولا بد له اذن أن ينتقل من أعصاب الحس الى العضلات .

يقول سبنسر : ولا يحدث هذا لجميع السامعين اذا كان فيهم من يستغرقه الشعور بالموقف ولا يدع فيه بقية للانتقال منه والالتفات الى غيره . فان هؤلاء قد يغفلون عنه أو يغضبون لتنبيههم من الشعور الذي هم مستغرقون فيه .

ويقول سبنسر ان المؤثرات لها في الانسان ثلاثة منافذ : منفذ الحس ، ومنفذ الفكر ، ومنفذ الحركة العضلية ، وانها كلها قابلة للتحول من منفذ الى منفذ سواء بدأت بالتفكير أو بدأت بالحس أو بدأت بحركة العضلات ..

فالرجل الذي يهرب من الخطر الداهم يجري وتشتغل عضلاته بهذه الحركة . ولكن هذه الحركة العضلية لا تستغرقه

ولا تمنعه أن يفكر في الخطر والحيلة التي يحتالها أو العمل الذي يعمله للنجاة منه .

فاذا كان الخوف أهون من الخوف على الحياة فربما انصرف بالحركة وأصبحت الحركة ضربا من الرياضة التي يتشاغل بها الانسان عن حالته النفسية ..

والطفل يصفق اذا فرح لأن شعوره ينتقل من الأعصاب الى العضلات ، وربما فرك الرجل الكبير كفيه في مثل هذه الحالة ، لأنه تعود هذا الشعور أو تعود أن يتحول عنده الى الفكر كما يتحول الى العضلات .

ومما يدل في رأي سبنسر على أن الضحك من حركات رد الفعل أو من الحركات الانعكاسية انها حركات لغير قصد أو حركات غير مقصودة بارادة صاحبها ، كأنها غمضة العين للوقاية أو رعشة البرد التي لا يريدها المقرور ..

ويتبسط سبنسر في وصف تأثير هذه الانفعالات غير الارادية فيرى أن تأثير الشعور قد يعطل تفكير الخطيب على الرغم منه وهو واقف امام الجماهير يحس وجودها ويخشى أن يتلعثم أمامها أو لا ينال موافقتها واعجابها ، ولو أنه وقف ليلقي خطابه امام الكراسي الخالية لانطلق تفكيره بغير عائق من الحس والشعور . وها هنا ثلاثة عوامل مشتركة في التأثير على الخطيب : عامل الحس اذ يرى الجماهير ، وعامل الشعور اذ يخشى التقصير والخيبة ، وعامل الفكر الذي يشغل الحس والشعور جانبا منه فلا ينطلق مع اشتراكها كما ينطلق على انفراد .

فالسريان بين منافذ الحس والتفكير والحركة طبيعي في المؤثرات النفسية ، وكلها تجري في مجراها الطبيعي من الفكرة الى الحس والحركة ، أو من الحس الى الحركة والفكر ، أو من الحركة الى الأحاسيس والأفكار .

غير ان الحس أو الفكر لا ينتقل الى العضل الا في غياب الحس والفكرة التي من قبيله ، فاذا كان الألم شديدا جدا يستوعب الشعور كله فهو لا ينتقل الى العضلات عند المفاجأة ، لأنه يجد طريقه في اتجاه الشعور بغير عائق يصده عن مجراه .

ويستطيع من شاء أن يحقق ذلك بمنظر يذكره أو يتخيله على وفاق المألوف من تجاربه ومشاهداته .

اذا جلس الناس في متم وحدثت على مشهد منهم مفاجأة مضحكة فقد يضحك الغرباء عن المأتم وقد يضحك الصغار الحاضرون وان كانوا من أهل الميت ، ولكن الكبار المفجوعين لا يضحكون لأن شعورهم يفيض في مجراه ولا تشغله المفاجأة المضحكة حتى تنتقل من الحس الى حركة العضلات ، وربما أثارهم وأغضبهم أن يروا أمامهم أحدا يضحك وهم مغلوبون بالأسى والفجيعة .

وملاحظة سبنسر ـ هذه ـ مهمة جدا في تصحيح التعريفات الأخرى ، ومنها تعريف أفلاطن وأرسطو وغيرهم للضحك ، اذ يقولون انه نتيجة الشعور بالسخف أو التشويه الذي لم يبلغ مبلغ الايلام والايذاء .

فالألم مانع للضحك لأنه يشغل الشعور بغير المضحكات

ومتى اشتغل الشعور بشيء آخر لم يشعر الانسان بالجمال ولا باللذة ولا بالسرور ، وليس الأمر هنـــا خاصا بالمضحكات دون المحاسن واللذات والمسرات .

ان المفاجأة التي تعوق الاحساس عن مجراه وتحولـــه الى العضلات كافية وحدها للضحك ولا حاجة معها الى استثنـــاء الألم ، لأن الألم استثناء لكل شعور وليس بالاستثناء للمضحكات دون سواها .

أما اذا كان الاحساس من القوة بحيث لا تعوقه المفـاجأة فانه يجترفها في طريقــه ولا يتحول الى العضلات ، ولا يحــدث الضحك من ثم على الرغم من جميع المفاجآت .

واذا قال قائل عن جدول الماء انه يجري ما لم يعقه عائق ، فهو لا يقول لنا شيئا عن طبيعة الماء دون غيره . فهكذا يحدث لكل متحرك انه لا يتحرك مع وجود العائق في طريقه سواء في ذلك حركة الماء وحركة البخار وحركة السهم وحركة القذيفـة من أقوى المدافع والراميات ..

وكذلك يكون من قبيل تحصيل الحاصل ان يقال ان الضحك يحدث ما لم يمنعه الألم . فان الألم يحجب الشعور بالمضحكـات وغير المضحكات : يحجب المتعة بالنكتة كما يحجب المتعة بالجمال والجلال واللذة وبدائع الفنون على الاجمال .

ويؤكد هذا ما لاحظنـــاه آنفا على تعريف أرسطــو الذي يشترط في الدمامة المضحكة ألا تبلغ حد الايلام . فان الانسان البليد لا يتألم ولا يفطن للضحك في وقت واحد ، واذا جمعنـا

اثنين أحدهما مرهف الاحساس والذهن والآخر ثقيل الاحساس والذهن فلا يلزم أن يكون هذا أكثر فطنة للضحك من ذاك لأنه بطيء الألم . بل يبطىء شعوره بالألم وشعوره بالضحك في وقت واحد ، ويغفل عن التشويه كله بجميع درجاته فلا يلمحه ولا يحسه في درجة من الدرجات .

ومن ثم ننتهي بعد ما تقدم الى الثقة من شرط واحد في المضحكات وهو شرط المفاجأة التي تتحول بالشعور عن مجراه . فاذا كان الشعور جاريا في مجراه ـ كشعور الحزن العميق ـ فالمفاجأة لا تدفعه الى الضحك ، واذا كان في المجلس نفسه أحد لا يبلغ منه الحزن ذلك المبلغ من العمق والاستغراق فانه يضحك من المفاجأة لأنها تستطيع أن تتحول بالمنظر ، أو المسمع ، من حس الأعصاب الى حركة العضلات .

رأي برجسون

والرأي الثاني بين الآراء النموذجية هو رأي هنري برجسون الفيلسوف الفرنسي صاحب مذهب دفعة الحياة .

ورأيه في الضحك أنه في وقت واحد تطور منطقي وحاسة اجتماعية .

فنحن نضحك اذا رأينا انسانا يتصرف تصرف الآلة ويقيس الأمور قياسا آليا لا محل فيه للتمييز المنطقي ، ولكننا نضحك في الجماعة عامة ولا نضحك منفردين لأن الضحك تنبيه اجتماعي أو عقوبة اجتماعية لمن يغفل عن العرف المتبع في المجلس أو في المحفل أو في الهيئة الاجتماعية بأسرها ..

والضحك عند برجسون انساني بمعاني الكلمة جميعا ، فلا يشاهد في غير الانسان ولا يستثيرنا الضحك في غير عمل انساني أو عمل تربطه بالانسان ..

فنحن لا نضحك من منظر طبيعي أو من جماد كائناً ما كان الا اذا ربطناه بصورة انسانية ، وجعلناه شبيها بانسان نعرفه أو منسوبا الى عمل من أعمال الناس . وقد نضحك من قبعة نراها فلا يكون الضحك من القبعة بل من الانسان الذي يلبسها ونتصور هيئته فيها .

ومن شروط الامر المضحك عند الفيلسوف أن يكون عملا انسانيا بغير معنى ، أو يكون المعنى فيه مطردا على طريقة آلية كأنه من أعمال الأدوات المجردة من التفكير .

ومن شروط الأمر المضحك عنده أن يحصل في جماعة أو يرتبط بالتصرف في الجماعة . فقلما يضحك الانسان على انفراد الا اذا استحضر العلاقة الاجتماعية في ذهنه ، وقلما ننظر الى أحد يضحك على انفراد الا خامرنا الشك في عقله ما لم يكن له عذر نعلمه ، فلا يزال الضحك على انفراد محتاجا الى اعتذار وتوضيح .

لهذا يقرر برجسون أن الضحك مرتبط بالتصرف المنطقي وبالحاسة الاجتماعية في وقت واحد . فهو وسيلة من وسائل المجتمع لحمل أبنائه على التصرف فيه تصرف الراشدين الذين يفقهون معنى ما يصنعون ..

ويفسر الفيلسوف أنواعا كثيرة من الضحك على ضوء هذه

الشروط . فيقول مثلا ان مرونة الحركة تهم الأطفال كثيرا فهم يضحكون من كل حركة تصطدم بغير وعي ويفقد فيها المرء قدرته على المرونة ، ويقول ان كل خلل في الحركة يضحكنا اذا قارنا بين الخلل والواقع ، وبين اللباقة التي يستدعيها تمام الخلقة والتكوين والتصرف المعهود . وكثيرا ما يضحكنا شرود الذهن لأن الانسان الذاهل ينسى عقله وحاسته الاجتماعية ويتكلم أو يعمل على غير ما تقتضيه الحالة التي هو فيها .

ويومىء الفيلسوف الى مناظر المحاكاة فيقول ان المحاكاة تضحكنا لأنها عمل يشبه عمل الآلات وتضحكنا لأنها تلفت النظر الى الغفلة أو التناقض في الانسان المحكي لأنه شبيه بالآلات ، واذا رأينا وجهين يتشابهان تشابهاً تاماً ضحكنا لأننا نتصور أنهما مصنوعان في قالب واحد كما تصنع الوجوه التمثيلية ..

ويضحكنا أن يتحكم الجسد في العقل والارادة تحكماً غير مناسب للموقف الحاضر ، فنضحك من الخطيب الذي تغلبه الحماسة والعطاس في وقت واحد ، ويضحكنا أن نرى أمامنا أحدا يطبق على الأحياء أحكام الآلات ، وهذا هو سر ضحكنا من الطبيب الذي يقول للمريض ان موته باطل لأنه لم يجر على وفاق الأصول المتبعة .

ويضحكنا الرجل الذي تتكرر في كلامه لازمة محفوظة نتوقعها فنضحك حين نسمعها .

وهذا المثل من أمثلة برجسون جدير بالانتباه اليه ، لأنه

يرجح رأيه على آراء القائلين بشرط المفاجأة في الضحك .

فالرجل الذي يكرر لازمة واحدة يضحكنا حين نسمع ما ننتظره منه فلا يقال اذن انه يضحكنا بالمفاجأة ، بل يصح فيه رأي برجسون وهو الرأي الذي خلاصته أن المضحك من أعمال الانسان هو الذي ينساق فيه انسياق الآلات .

* * *

ونحن نستدرك ما يستدرك من هذه الآراء في أثناء تلخيصه ، وقبل الانتقال الى التعقيب الاخير عليه ، لأننا نحب أن ننتهي الى النتيجة خالصة من الاعتراض والاستدراك خالية من اللبس ودواعي الاطالة في المناقشة والتمحيص .

والمثل الذي يجب الانتباه اليه من أمثلة برجسون يرجح رأيه على رأي القائلين بالمفاجأة لأول وهلة ، ولكنه لا يلبث أن يعود بنا الى القول بالمفاجأة من جانب آخر .

فمشابهة الآلات هي في ذاتها مفاجأة مستغربة من الآدميين العقلاء . ولهذا يتفق القولان ولا يتناقضان ، ويجوز أن يقال ان المفاجأة ومشابهة الآلة شيء واحد ، وان مشابهة الآلة باب من أبواب المفاجأة لا يستوعبها ولا يمنع الضحك من غيرها .

وأما الضحك من تكرار اللازمة التي ننتظرها فهو لا يدل قطعا على نفي المفاجأة أو على الضحك من الشيء لأنه منتظر ... بل هو نوع من استعادة الضحك السابق كما نبتسم عندما يمر بخاطرنا تمثيل دور مضحك شهدناه من قبل ونود أن نعيده ونتملاه من جديد ..

وهذا المثل ــ بالذات ــ أصلح الأمثلة لتوضيح الحقيقة في هذا الخلاف ..

فاللازمة المتكررة لا بد أن تتكرر حتى تصبح لازمة ملحوظة وحين نبدأ بالاستماع اليها لا نلاحظ أنها لازمة تعاد في مناسبة وفي غير مناسبة الا اذا سمعنا صاحبها يتكلم في مسائل شتى ويعيد لازمته على اختلاف هذه المسائل وتناقضها ، ومتى ثبت لدينا أنها لازمة وانتظرناها فانما نحن نستعيد ضحكا سابقا ولا ننشيء الضحك لأول مرة ، ويصدق على هذا النوع من الضحك أنه من قبيل استعادة المناظر التي سبق لنا أن ضحكنا منها وأحببنا أن نتملاها ونرجع اليها حيناً بعد حين .

* * *

ونستطرد بعد هذا في سرد الأمثلة المتعددة التي ينطبق عليها رأي برجسون ، ومنها غير ما تقدم مثل الشاطر الذي يغلب بالشطارة ، أو مثل الفخ الذي يقع فيه واضعه ، فان هذا الشاطر ــ على شطارته ــ يتصرف كالآلة حين ينعكس عليه عمله وهو أحق من سواه بالاحترام منه .

وهذا المثل ــ كالمثل السابق ــ يمكن تفسيره برأي برجسون ورأي القائلين بالمفاجآة حين يقع غير المتوقع وهو انخداعه بما يخدع به الناس .

ويعلل برجسون ضحك الكثيرين من النكتة الجناسية بأنها تحول الذهن من المعنويات الى الحسيات. لأن الكلمتين المتجانستين تتشابهان في النطق وتختلطان في المعنى . فيتصور السامع

الحركات الجسدية وهو يفكر في المعاني الاخلاقية أو الذهنية ، وهذا الضحك يشابه الضحك من الخطيب الذي تأخذه الحماسة لفكرة من الأفكار ثم يغلبه العطاس .. فانه في هذا الموقف مغلوب لضرورات جسده الآلية ويتصرف على الرغم منه كما تتصرف الآلات .

وعلى هذا النحو مواجهة الذهن بكلمتين متجانستين احداهما مادية والأخرى معنوية ، وتلحق بالجناس كلمات الكتابة والاستعارة والمجاز وسائر الكلمات التي تواجه الذهن بصورتين احداهما لائقة بالانسانية والأخرى غير لائقة ، كأن يقال عن أحد انه من أهل اليسار ، أو انه فنان ، أو انه جبل ، أو انه طويل الباع .

والحاسة الاجتماعية عند برجسون أعم من جميع الآسباب، فالضحك اذن ملكة اجتماعية يراد بها تصحيح الخطأ في معاملة الجماعة ، وهو يتناول الاخطاء التي لا تبلغ حد الاجرام لأن المجتمع يعالج هذه بالجزاء القانوني أو بالانتقام ، ويتناول الاخطاء التي ينبو عنها الذوق كل النبو مع سوء النية لأن المجتمع يداوي هذه بالنفور والاشمئزاز وانما يكتفي بالضحك من الاخطاء التي يسهو فيها الانسان عن التقاليد الاجتماعية على غير قصد وبغير نية سيئة .. فهذه الأخطاء يكفي في التحذير منها أن يتعرض صاحبها للضحك وأن يكون هذا الضحك عقوبة على قدر الاساءة العارضة ، فيحسب في هذه الحالة كأنه قانون خفيف حيث لا حاجة لتطبيق القانون الذي يحمي المجتمع من الجرائم والاضرار الجسام .

بل يكاد يكون الضحك عقابا اجتماعيا خفيفا لمن يدينون بالاحكام الحرفية ويطبقون القواعد في دقـــة وصرامة توحـي الى الذهن أن الذي يطبقها آلة لا تفكر ولا تحس بما تصنعه ولا تفرق بين جزاء وجزاء وتقدير وتقدير ..

ففي هذه الحالة يكون الضحك تصحيحا للاحكام المبالـغ في « دقتها الحرفية » لأنهـــا صفة آلية لا تليق بالقياس المنطـقي والتقدير السليم .

وزبدة الأمثلة جميعـــا في رأي برجسون تلخص أسبـاب الضحك في حماية المنطق الانساني وحماية الحاسة الاجتماعيـة على الخصوص . فكلما هبط الانسان من مرتبة التصرف المنطقي الذي يناسب علاقاته الاجتماعية كـان ذلك مثيرا للضحك منه لتنبيهه الى تقصيره ، على شريطة الوقوف بهذه الاخطاء عند حد لا يبلغ الاجرام ولا يدخله سوء النية ، بل يخلو من كل قصد يقصده الكائن العاقل المتصرف ، فيرتد الى الحركة الآلية التـي تتجرد من المقصد في جميع الحركات .

رأي فرويد

بقي من الآراء النموذجية رأي « سيجموند فرويد Freud » الطبيب النفساني صاحب المذهب المشهور الذي شاع وشاعت مصطلحاته على الألسنة حتى أصبح حديث الوعي الباطن والعقد النفسية ومركب النقص وما اليها من أحاديث الخاصة والعامـة وكاد هذا المذهب أن يستأثر بتفسير خفايا النفس البشريـة في مسائل الاخلاق والعادات والبواعث الفردية والاجتماعية ..

وقد أفرد الطبيب النفساني رسالة مسهبة للكلام على النكتة ومدلولاتها الاجتماعية والفنية ومواطن الشبه بينها وبين الاحلام والرؤى في الوظيفة التي تؤديها للفرد وللجماعة .

وزبدة رأي فرويد أن النكتة ضرب من القصد الشعوري والعملي يلجأ اليه الانسان في المجتمع ليعفي نفسه من أعباء الواجبات الثقيلة ويتحلل من الحرج الذي يوقعه فيه الجد ولوازم العمل ، وأن النكتة تشبه الحلم في أساليبه وهي التورية والتأويل والاختزال والمسخ والتلفيق ، أي جمع الصورة الواحدة من أجزاء صور متفرقة لا تجتمع في الواقع .

والناس يقولون عن الرجل انه يمزح أو يقولون عنه انه يحلم على السواء حين يريدون اعفاءه من المؤاخذة ولا يريدون الجد معه في المحاسبة والتحقيق ، وكأنما يحتال المرء بالفكاهة على بلوغ أمر لا يبلغه بالحجة والدليل ، وكذلك يحتال في أحلامه على تحقيق الاماني التي تفوته في اليقظة وتشغل باله على غير جدوى ، فهو يستعين بالنكتة او بالحلم على صعوبة واحدة وهي تيسير الواقع والاعفاء من الكلفة والمشقة .

وقد أورد في رسالته أمثلة كثيرة سنشير الى بعضها ونكتفي هنا بنادرة واحدة من النوادر الفكاهية التي تساوي الاحلام في رفع الكلفة والسماح لقائلها أو سامعها بما هو محظور عليه اذا جد في القول وعبر عن غرضه بالكلام الصريح :

رجلان من أصحاب الملايين صنعا صورة لهما عند رسام مشهور وعرضت الصورتان في معرض عام وبينهما فجوة تتسع لصورة ثالثة . فقال أحد الناظرين وهو يتأمل الصورتين وينظر

الى الفجوة بينهما : ها هنا متسع لصورة السيد المسيح .

وسمع الواقفون كلمته وعلموا انه يقول عن صاحبي الملايين أنهما لصان ، لأن القصة المسيحية تقول ان السيد المسيح وضع على الصليب بين لصين ، وعلموا أيضا أنه يعني أنهما يستحقان الصلب كما استحقه أولئك اللصان ، ولكنهم ضحكوا . وسمع صاحبا الصورة ما قيل فلم يجدا سبيلا الى مؤاخذته أو رفع أمره الى القضاء ، ولعلهما لو فعلا لاتهمهما الناس بالجلافة وجرا على نفسيهما من السخرية ما كانا في غنى عنه . .

ويريد فرويد منا في هذه النادرة وأشباهها أن نتخيل قائل النكتة وهو يحلم ويعزي نفسه عن الحرمان من الثراء . فانه سيخلق في منامه قصة يتمثل فيها صاحبي الملايين مشهرين بين الناس بالسرقة أو مسوقين الى ساحة القضاء أو مغلقين وراء جدران السجون ، فيعمل الحلم عمل النكتة في ترضية الرجل بأسلوبين مختلفين يصدران عن باعث واحد لغاية واحدة .

ويسرد فرويد انماطا من النكتة تشترك بين الجناس والمغالطة ورد الحيلة بحيلة من قبيلها والتفاهم على الكذب والاجوبة المسكتة وكشف السر على غير قصد وغيرها من المضحكات مما ينطبق عليه تعليله بسهولة أو ينطبق في صعوبة وتعسف .

وهذه انماط منها بغير ترتيب ، ونبدأ منها بنادرة تشبه النوادر التي تروى عن قرهقوش وتصلح للدلالة على وحدة المنطق الفكاهي بين الناس على تباعد الاقطار والاجناس .

يروى في بعض قرى المجر أن حدادا اقترف جريمة يعاقب

عليها بالموت ، فحار قاضي القرية في أمره لأنه الحداد الوحيد في القرية ولا تستغني عنه بغيره اذا نفذ فيه الحكم ، ثم اهتدى بعد التفكير الى حل المشكلة باعدام الطرزي بدلا منه لان القرية فيها طرزيان .

ومن الأقوال المضحكة التي استشهد بها فرويد قول الشاعر هايني في امرأة يعيبها في قالب الثناء فيقول انها تشبه تمثال الزهرة « فينوس » .. لأنها مثلها عتيقة جدا ، ومثلها بغير أسنان ، ومثلها في البقع البيضاء على بشرتها الصفراء .

وشبيه بهذا الثناء المعكوس قول القائل عن رجل يهجوه انه يشبه جميع العظماء ، فهو كالاسكندر ينحرف رأسه الى جانبه ، وكيوليوس قيصر يكمن شيء في شعره على الدوام ، وهو يفرط في شرب القهوة افراط ليبنتز ، وينسى الأكل والشراب اذا جلس على المائدة كأنه اسحاق نيوتن ، ويحتاج كما يحتاج اسحق نيوتن الى من يوقظه .. وهو يلبس الشعر المستعار كالدكتور جونسون ، ويترك سراويله مفتوحة كمؤلف دون كيشوت .

ومن نوادر فرويد عن اليهود ــ وهو يهودي ــ أن يهوديا رأى على لحية زميله بقايا طعام فقال له : « انني أستطيع أن أذكر لك الصنف الذي أكلته بالأمس » . قال زميله : « حسن ، قل ودعنا نسمع » فقال له صاحبه المتعالم : « انك أكلت فولا ».. فسخر منه آكل الفول وقال : « كلا . انك غلطان يا هذا ، فانني أكلته أول أمس » !

وتلاقى يهوديان في القطار فسأل أحدهما الآخر : « الى أين

تذهب ؟ » فأجابه الآخر : « الى كراكاو » فغضب السائل وعاد يقول : لماذا تكـــذب علي ؟ .. انك تعلم انك اذا قلت لي انك ذاهب الى كراكاو فهمت أنا أنك ذاهب الى لمبرج .. ولكني أعلم هذه المرة انك ذاهب حقا الى كراكاو .. فلماذا هذا الكذب ؟ » .

ويذكر فرويد من فن النكتة أسلوبا يعتمد على اللعب بلفظة واحدة تجعل من هدفهـــا أضحوكة سهلة ، ومن قبيل هـــذه النكات قول مزاح مشهور: «ان فلانا له مستقبل عظيم وراءه!».. وقوله عن وزير زراعة أخفق في عمله فعاد الى حقله : « انه عاد الى مكانه امام المحراث » !

ويذكر أسلوبا يعتمد عـــلى اللعب بصفة واحـــدة تختلف مراميها ، كما قيـــل عن فتاة كانت على اتصال بجميع رجـــال الجيش : « انهـــا تذكرنـــا بدريفوس ، لأن الجيش لا يصـــدق ببراءتها » .

ويذكر المغالطة في الجواب ، ومن قبيلها ان رجلا قصد الى أحد المحسنـــين وأفهمه انه في عسرة شديدة وأنه يحتـــاج الى قرض يسير للنجاة من كارثة محققـــة ، وبعد اعطائه القـــرض بساعة رآه المحسن اتفاقا في مطعم من مطاعم الطبقة العليا وأمامه صفحة من السمك الفاخر فقال له مؤنبا : « أهكذا تنفق المـــال الذي تستعيره للضرورات لتآكل به الصحاف الفاخرة ؟ » فأجابه المحتال وكأنه دهش من سؤاله : « عجبا لك يا سيدي ! مـــتى تظنني آكلها : ان كنت لا آكلهـــا مفلسا ، ولا آكلها وفي يـــدي ثمنها ؟ »

وعلى هـــذا النمط قصة مدرس في احـــدى القرى مولع

بالشراب لم يزل يدمن السكر حتى اعتزلته جميع الامر ونفر منه تلاميذه . فنصح له صديق قائلا : « انك تستطيع أن تجمع عندك تلاميذ القرية جميعا لو تركت الشراب ، فلماذا لا تحاول وتجرب ؟ » فأجابه المدرس السكير : « على رسلك يا هـذا .. انما أعطي الدروس لأجد الشراب فهل تراني أترك الشراب لأعطي الدروس ؟ »

وقريب من هذا اللعب بالمقابلة قول القائل في تفاهة الحياة : « انها نصفان نقضي نصفها الأول متطلعين الى الثاني ، ونقضي نصفها الثاني متأسفين على الأول ! »

وسمع فولتير قصيدة روسو الشاعر الفرنسي الذي كتبها يوجد فيها الخطاب الى الأجيال المقبلة ، فعقب عليها قائلا : « هذا خطاب لا يصل الى المرسل اليه » .

وللاجوبة المسكتة نصيب وافر من أساليب الضحك عند فرويد ، وهذه أمثلة منها :

كان القيصر أغسطس يسيح في أرجاء ملكه فلمح شخصا يشبهه كل الشبه ، فسأله :

ـ أكانت أمك تعمل في بيتنا ؟

فأجابه الشبيه الجريء :

ـ كلا .. بل كان أبي .. !

وكان بعض الوعاظ الامريكيين ينادي بحقوق السود في بلد ليس فيه كثير من السود . فقال له رئيسه :

ـ لم لا تذهب الى كنتكي حيث يقيم أصحابك ؟

فسأله الواعظ المسئول :

ـ ألست يا مولاي تعمل لانقاذ الارواح من النار ، فلماذا لا تذهب الى جهنم ؟

ويتخلل الأمثلة كلها نوادر متفرقة تعتمد على الجناس اللفظي الذي لا ينقل من لغة الى لغة ولا حاجة الى نقله لكثرة هذه الفكاهات الجناسية في اللغات جميعا ولا سيما العربية . ثم يختم الرسالة بتلخيص لتقسيم المضحكات الى ثلاثة أقسام : النكتة Wit والهزل comic والدعابة humour

وكلها مما يفسر عنده بالقصد في القوى النفسية ، ولكن النكتة قصد في العاطفة التي يكلفنا كبتها الكثير من مجهود النفس ، والهزل قصد في الفكر والمنطق ، واما الدعابة فهي قصد في الاحساس ، واننا نتطلب هذه الأفانين جميعا بعد سن الطفولة التي لا تعرف المفارقات المضحكة ولا تقدر على تفكير النكتة ولا تحتاج الى الدعابة لتشعر بالسعادة ..

***

والى هنا يبدو لنا أن الامثلة التي استشهد بها رائد المدرسة النفسية الحديثة لا ينطبق عليها تفسيره في جميع الاحوال ، وان القصد في الشعور أو التفكير قد يتحقق بالنكتة أحيانا ولكنه لا ينشئها ولا هي متوقفة عليه .

ولنرجع الى نادرته عن اليهودي الذي قابل زميله في القطار وسأله عن وجهته فصرح له بذهابه الى كراكاو وعتب عليه زميله لهذا الكذب لأنه كان سيذهب فعلا الى كراكاو ولم تجر العادة بذكر الوجهة الحقيقية اجابة أمثال هذا السؤال .

فلا قصد في هذه النادرة ولا ادخار ، وليس فيهـــا موضع لزيادة في المقال أو الاتهام ، ولكنها تضحك السامع لأنها تفاجئه بغرابة اللوم لهذه المناسبة ، فان السامع يسمع اللوم على الكذب فلا يخطر بباله أن الكذب في عرف المتحدثين هو الجهر بالصدق الصراح ، ثم يفاجأ بسبب اللوم فتكون المفاجأة عماد الفكاهــة هنا كما كانت عماد الفكاهة في جميع النوادر التي استشهد بها فرويد من المغالطات أو التحريفات أو الاجوبة المسكتة . وليس في الجواب المسكت قصد في الشعور أو القول ، ولكنه مثل واضح للمفاجأة على الخصوص حين يكون السائل عــلى ثقة من احراج المسؤول فلا يلبث أن يأتيه الجواب السريع فيرتد الحرج اليه .

ويجوز لنا بعد هذه التعليقات الموجـــزة أن نفهم أن رأي برجسون ورأي فرويد لا يناقضان تفسير الضحك من الوجهة الجسدية كما أجمله داروين في كتاب التعبيرات وفصله سبنسر في مقاله عن الضحك من الوجهة الفزيولوجية وأنهما لا يغنيان عن ذلك التفسير في النهاية سواء كان سبب الضحك فكرة أو مشاهدة حسية ، لأن نتيجته هي أن يتأثر الجسد به على النحو الذي ذهب اليه سبنسر وداروين من قبل .

مفاجأة تحبس الفكر أو الشعور عن مجراه فيتحول عنه الى العضلات ويبدأ الاثر في أسهل هذه العضلات حركــة ثم يسري الى غيرها من عضلات الجسم كله اذا اشتد الباعث على الضحك .

ولا تناقض بين هذا وبين قول برجسون اننا نضحك مـــن الانسان اذا تصرف في حركاته وأقواله تصرف الآلة الصمـاء . فان هذا التصرف يفاجئنا بشيء لم ننتظره من انسان عاقـــل

تجري أعماله على حكم المنطق الفطري الذي طبع عليه الانسان المسمى بالحيوان الناطق أو الحيوان المنطقي بعبارة أخـرى . فنحن ننتظر عملا منطقيا فنرى أمامنا عملا آليا على غير انتظار أو على خلاف المنتظر ، وهذه هي المفاجأة التي ترجع بنـــا الى تفسير داروين وسبنسر ، وقد ضحك الانسان من النقائص المفاجئة قبل شيوع الآلات وخلق له جهاز الضحك قبل احتقاره التشبه بالآلة .

وقول برجسون أن الضحك تنبيه اجتماعي لمن يذهلون عن آداب البيئة لا ينقض هذا السبب ، لأنه فائدة من فوائد الضحك لا تفسر أسبابه ولكنها تدل على غاية من غاياته ، والفرق ظاهر بين الأسباب والغايات ..

ويرجع بنا رأي فرويـد الى المفاجأة كما يرجع بنـا رأي برجسون اليها . فان استخدام الضحك أحيـــانا في « الاقتصاد الشعوري » هو أيضا من قبيـــل الفوائد التي يستفيدها منه وليست الفوائد كما تقدم معطلة للأسباب .

وليس في النوادر التي تمثل بها فرويد نادرة واحدة تخلو من المفاجأة وتغنينـــا عن تفسير سبنسر أو تفسير داروين ، فالجواب المسكت مفاجأة ، والحيلة التي ترتد على صاحبهـــا مفاجأة ، والتخلص السريع بالمغالطة التي تخالف المنطق المألوف مفاجأة ، وتكذيب الجواب الصادق لان الصدق غير مألــوف من صاحبه مفاجأة ، وسائر النوادر التي نقلناها أو لم ننقلها ترجع بنا الى علة المفاجأة من أقرب طريق .

وقد فرق الباحثـــون في الضحك بين كثير من المضحكات لاختلاف أسمائها كما تختلف كلمات السخرية أو الاستهزاء أو الدعابة أو الفكاهة .

فاذا استرسل الناظر في تتبع هذه الفروق وجد في النهاية انها تؤول الى فروق بين أنـــواع الضاحكين وليست فروقا بـــين أنواع الضحك في أصوله .

فالضحك كله مفاجأة تتحول بالفكرة أو الشعور عن مجراه

ولكن السخرية التي تؤلم الناس أو تكشف عيوبهم ومثالبهم هي ضحك الشرير الخبيث .

والاستهزاء الذي يتعالى صاحبه عـــلى الناس هو ضحـــك المتكبر الذي غلظت نفسه فلا يبادلهم الشعور ، أو هو ضحك العابث الذي يستخف بكل شيء ويجد الناس وهو نـــاظر الى جدهم بغير اكتراث .

والدعابة التي يشترك فيها الضاحك والمضحوك منه هـــي ضحك القلب الطيب الذي يسر نفسه ويسر غيره بما يكشفه من هفواتهم أو يعرضه من نقائضهم ، فلا يحسون انه يفردهم بتلك النقائص أو يأخذ تلك الهفوات مأخذ الشماتة والخيلاء .

والفكاهة التي تمثـــل لنا المضحكات هي ضحك الفنان أو الناقد الذي يصور لنا دواعي الضحك ويبـــدع في تصويرهـــا وتمثيلها ، فهو مضحك وليس بأضحوكة ، أو هو واضع الضحك وليس بموضوع للضاحكين .

وهذه كلها فوارق بين الضاحكين وليست فوارق بين أنواع

الضحك في الصميم ..

ومن الشائع جدا أن يقترن بالضحك شعور الغبطة بتفوقنا على الآخرين ، ولكن لا يندر أن نضحك من أنفسنا اذا فوجئنا بالهزيمة التي لا نتوقعها في موقف نظن فيه اننا نحكم الشباك لغيرنا فاذا هو قد أفلت من تلك الشباك وأوقعنا فيها .

ومن هذه الهزيمة المفاجئة ضحك الساسة والأمراء حين بلغهم افلات نابليون من جزيرة ألبا وعودته الى فرنسا وهم يحسبون أنهم وضعوه في القفص وجلسوا يقررون مصير القارة الأوربية من بعده .

ولو أنهم فوجئوا بنابليون يحاصرهم في مؤتمرهم ويهددهم لساعته في أرواحهم أو عروشهم لما ضحكوا كما ضحكوا وهم آمنون في تلك الساعة .

ويتساوى في هذا الشعور بالضحك والشعور بالجمال والشعور باللذة ، فلو كان المعروض على مؤتمر الساسة فتنة من فتن الزهرة ربة الجمال وحاصرهم العدو المهدد لحياتهم لشغلهم الخطر عن الشعور بذلك الجمال الفتان ، ولو كانت مائدة طعام جمعت ما لذ وطاب بين أيديهم ثم حوصروا ذلك الحصار لشغلهم الخطر كذلك عن طلب الطعام والقوت .

فلا يلزم اذن أن نقول ان الشيء المضحك هو الشيء المشوه الذي لم يبلغ درجة الايلام ، لان بلوغ درجة الايلام يعطل كل شعور ولا يعطل الشعور بالمضحكات دون سواها .

وصحيح ــ بعد هذا ــ ان نجمل التفسيرات جميعا فنقول

ان الضحك ينجم عن مفاجـأة تتحـول بالفكـر وبالشعور عـن مجراه ، وان الاختلاف بين السخريـة والاستهزاء والدعابـة والفكاهة لا يلجئنا الى البحث عن اختلاف في أنواع الضحك لأنه هو في لبابه اختلاف بين الضاحكين .

الضحك في الكتب الدينية

في القرآن الكريم

لا يتقابل شعوران من طرفي التعظيم والاستخفاف كما يتقابل الشعور بالمقدس والشعور بالمضحك في النفس البشرية .

ولا يوجد لنا مرجع نعتمد عليه في هذه المقابلة الواقعية أولى بالرجوع اليه من الكتب المقدسة ، ولا سيما الكتب التي تسوق العبرة من القصص والامثال وتروي الاخبار عن الضحك والضاحكين من مختلف الطبائع والأمزجة وفي مختلف المناسبات.

وهذه الأخبار متكررة في القرآن الكريم ، وكلما شاهد محكم للعالم النفساني يركن اليه في تفسيره لأطوار النفس البشرية ، حيث تبرز حقيقة الضحك مع سياق الكلام عنه في كلام مقدس ، لبروز الفارق بين الشعورين : شعور القداسة في موضعها وشعور الضحك بشتى معانيه .

جاءت الاشارة الى الضحك في القرآن الكريم مرة في قصة ابراهيم ومرة في قصة سليمان عليهما السلام .

ففي قصة ابراهيم يقول ابراهيم حين زاره الملائكة فلم يعرفهم وخافهم ثم بشروه بولادة اسحاق من زوجته سارة :

« ... فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف انما أرسلنا الى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا ان هذا لشيء عجيب ».

فهنا خوف فاطمئنان فبشرى مفاجئة على غير انتظار ، فتعجب لا تملك سارة أن تجهر به فتقول : ان هذا لشيء عجيب ..

كل عوامل الضحك النفسية التي ظهرت للباحثين النفسانيين في تفسيراتهم ــ تعرضها هذه الآية الكريمة على نسقها المتتابع فتأتي بالضحك حيث يأتي الضحك مطردا في مواضعه المختلفة من تحول الشعور طمأنينة بعد خوف ، ومعرفة بعد نكران ، وبشارة بما ليس في الحسبان من الولادة بعد سن اليأس وخيبة الأمل في الذرية زمنا طويلا تعتلج فيه النفس بأشتات من دواعي الحزن والعزاء والغيرة والتسليم .

ولا تغني هنا كلمة « سرت أو كلمة استبشرت أو فرحت » في مكان كلمة ضحكت . فان الضحك هو الاثر الملائم لهذه الحالة التي تشابكت فأصبحت في قرار النفس حالات متناقضات .

* * *

وجاء في القرآن الكريم عن قصة سليمان عليه السلام : « حتى اذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم

ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه » ..

فها هنا عوامل الضحك على سجيتها ماثلة في نقائضها الدقيقة ومصاحباتها التي تقترن بها على حسب هذه المناسبة دون غيرها ، وهي مناسبة مخالفة في بعض أجزائها لمناسبة الضحك في قصة ابراهيم .

هنا الفارق الشاسع بين ضآلة النمل وبين ضخامة الملك الذي أوتيه سليمان ..

وهنا رضى سليمان بما تفيضه نعمة الملك العريض في نفسه من السعة ولا يفهم عنها ما تقول .

هذا الفارق الشاسع بين ضآلة النمل وبين ضخامة الملك نفسه من السعة ولا يفهم عنها ما تقول .
ذلك آت من حيث لا ينتظر : من نملة ضئيلة تخشى أن تحطم هي وواديها كلها ولا يشعر بهم سليمان العظيم ..

وورد الضحك في آيات متفرقة بمعنى السخرية والاستهزاء ، فجاء في سورة المطففين : « ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون واذا مروا بهم يتغامزون واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون »

فالضحك هنا مقترن بالتغامز الخفي ، كأنما يحسب المستهزئون أنهم يستغفلون المؤمنين الذين يمرون بهمفيسخرون

منهم بالتغامز بينهم ، ويضحكون اذا التفت اليهم المؤمنون على حين فجأة فلا يملكون اخفاء العبث والسخرية ، كما يحدث دائما بين المتغامزين اذا انكشفوا وامتنع عليهم الكتمان والتمادي في الاستهزاء من وراء الأنظار .

والضحك الأخير يأتي حين لم يكن في الحسبان ، لأن الكفار كانوا يضحكون فاذا بهم قد انقلب عليهم الامر فهم أضحوكة للضاحكين ، وهؤلاء وادعون على الارائك ينظرون .

وجاء في سورة الزخرف : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا الى فرعون وملأه فقال اني رسول رب العالمين فلما جاءهم بآياتنا اذا هم منه يضحكون . »

وضحك المفاجأة هنا واضح من طلب الآيات ثم اخلاف ظن موسى عليه السلام لأنهم عبثوا به وهو ينتظر منهم بعد مجيئهم بالآيات أن يؤمنوا فاذا هم يفاجئونه بما لم ينتظر من اصرارهم على الكفران .

ولا بد في كل ضحك من الشعور بالمفاجأة في الضاحك أو فيمن يتعرض للضحك . فهو شعور ملازم للمضحكات من طرفيها .

وفي سورة النجم عن نوح عليه السلام : « وقوم نوح من قبل انهم كانوا هم أظلم وأطغى والمؤتفكة أهدى فغشها ما غشى فبأي آلاء ربك تتمارى هذا نذير من النذر أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون فاسجدوا لله واعبدون »

ففي هذه الآيات يحسب الرسول أنه يأتيهم بما يبكيهم فلا يحسون داعية للبكاء ويستغربون فينتقل بهم الاستغراب من أحاديث الرسول عن نذير الآزفة المطبقة الى الأمان الذي يتصورونه ولا يحسون غيره . وبين هذين النقيضين المتباعدين يتعجب القوم ويضحكون : موقف لا وسط فيه بين البكاء والضحك . فاما أن يحس السامع نذير الآزفة فيبكي أو يستغربها ويستبعدها فيضحك تعجبا من كلام القائل واطمئنانه الى الأمان الذي يقال لهم أنهم مهددون فيه .

والضحك من البلاء الذي لا يحسه السامع ويحس نقيضه كالضحك من البلاء الذي يحسه ويحس أنه ناج منه ، وقد تكرر ذكر الضحك بهذا المعنى فجاء في سورة التوبة عن المخلفين الذين فرحوا بمقعدهم عن القتال : « فرح المتخلفون بمقعدهم خلف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون » ..

وهذا الضحك أيضا مقرون بالسماع عن الخطر مع الشعور بالأمان ، فهو ـ كما تقدم ـ كالشعور بالخطر حيث يغلب اليقين بامتناعه أو يمتنع بعد نذير لا يخيف .

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر الضحك بمعنى السرور لانه يلازمه في معظم دواعيه ومظاهره .

وورد ذكر السخرية والاستهزاء ، وهما في أكثر الايات بمعنى الاستخفاف والكبرياء ، أو بمعنى التردد بين حالتين :

حالة ظاهرة وحالة باطنة تناقضها ، ولا يخفي أن نقل الشعور بين هاتين الحالتين سبب من أسباب الضحك على اختلاف الضاحكين : « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون . »

وما من آية ورد فيها ذكر السخرية الا كان فيما تحتويه شعور قوم فارغين باجتهاد الأنبياء وندائهم في غير طائل على ما يبدو لأولئك الفارغين ، ويتكرر هذا الضرب من السخرية في قصة نوح لأنه من جهة ينذر ويحذر ويتوعد بالغضب المحيق ، وهم من جهتهم وادعون غافلون يمرون به وهو جاهد في عمل الفلك فيتضاحكون :

« ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم . »

وكلا الجانبين ــ جانب نوح وجانب قومه ــ فيه أمان مع خوف يتناقضان ، وفيه ثقة تناقض الثقة التي تقابلها ، فكلاهما عنده سبب للسخرية بين هذين النقيضين .

في التوراة

وقد مر بنا استشهاد الفيلسوف العبري بالتوراة عن ضحك الاله ممن يفترون بقدرتهم ويعتزمون أمورا يجترئون عليها ثم يعجزون عنها .

وهذا الشاهد مأخوذ من المزمور الثاني الذي يقول ناظمه

انه يسمع دعوى المغرورين فيضحك لأنه أخبر منهم بما يريده الرب على عرشه ، وهذا نص المزمور :

« لماذا ارتجت الأمم وتفكر الشعوب في الباطل

« قام ملوك الأرض وتآمر الرؤساء معا على الرب وعلى مسيحه . لنقطع قيودهما ولنطرح عنا ربطهما

« الساكن في السماوات يضحك

« الرب يستهزىء بهم . وحينئذ يتكلم عليهم بغضبه ويرجفهم بغيظه . أما انا فقد مسحت ملكي على صهيون جبل قدسي

« انني أخبر من جهة قضاء الرب »

فالضحك هنا يترجم عن حالتين متناقضتين : احداهما غرور ظاهر بالقوة ، والأخرى حقيقة هذا الغرور العاجز الذي لا قبل له بما يدعيه .

والاختلاف بين هاتين الحالتين هو مثار الضحك مجازا بالنسبة للاله ، وحقيقة بالنسبة الى الانسان .

وجميع ما ورد في العهد القديم عن الضحك فانما يفهم الضحك فيه بمعنى الاستهزاء والسخرية اذا كان من المنكرين ، وبمعنى الاستغراب والدهشة اذا كان من المؤمنين .

وجميع هذه الشواهد ينحي على المستهزئين لأنهم يستكبرون ولا يصدقون ، فهم يستهزئون بالأنبياء لأنهم يرونهم بأعينهم مدعين القدرة ظاهرا وعلى غير شيء في الباطن ، والأنبياء يستهزئون بهم لأنهم يرون الحقيقة معكوسة من جانبهم على

أولئك المنكرين المستكبرين ، فهؤلاء المنكرون المستكبرون هم الذين ينتفخون على هواء ، ويرى النبي صورتهم المنتفخة وصورتهم الخاوية فيرى منهم تناقضا يوحي بالاستهزاء ، ولا سيما حين يفتر أصحابه فيستهزئون بالعارفين .

ففي سفر أشعيا يقول النبي عن الأمراء والسادة « اسمعوا كلام الرب يا رجال الهزء ـ ولاة هذا الشعب الذي في أورشليم »

وفي الأمثال من الاصحاح الأول كلام عن ضحك الشماتة والاستهزاء يقول فيه صاحب السفر : « اني دعوت فأبيتم ومددت يدي وليس من يبالي ، بل رفضتم كل مشورتي ولم ترضوا توبيخي ، فأنا أيضا أضحك عند بليتكم ، أشمت عند مجيء خوفكم »

وليس أكثر في كتاب الأمثال من الاشارة الى الاستهزاء بمعنى الكبرياء والغرور والجهالة ، ومن الاشارة الى جزاء المستهزىء وأثره السيىء في قومه وحكمة تأديبه لينتفع الحمقى بعبرته ويزدجروا بالنظر الى مصيره .

قال : المستهزىء يطلب الحكمة ولا يجدها

وقال : المنتفخ المتكبر اسمه مستهزىء عامل بفيضان الكبرياء

وقال : اضرب المستهزىء فيتذكى الأحمق

وقال : بمعاقبة المستهزىء يصير الأحمق حكيما

وقال : المستهزئون يفتنون المدينة ، أما الحكماء فيصرفون الغضب

وقال : الابن الحكيم يقبل تاديب أبيه والمستهزىء لا يسمع انتهــارا

* * *

وكتاب الأمثال أكثر الكتب في العهد القديم اشارة الى الهزء والاستهزاء وهو تكرار يوافق طبيعة السفر كله ، لأن الأمثال سفر الحكمة والتجربة وهما نقيض الاستهزاء الذي يستخـف صاحبه بجميع الأمور ولا يزال كذلك حتى تهديه تجارب الأيام الى الاعتبار بالحوادث وبعد النظر في عواقب الأمور ، فاذا هــو ينظر اليها كما قال الشاعر العربي :

أمور يضحك السفهاء منها ويبكي من عواقبها اللبيب

وليس في كتب العهد القديم كتاب تكررت فيه الاشارة الى الاستهزاء كما تكررت في كتاب الأمثال ، ولكنه جاء في بعـض الكتب على ندرة واختلاف يسير في المعنى ، وكادت قصة سارة في سفر التكويــن أن تنــم عــن ضحــك بمعنــى الاستغـراب والاستعظام ، لأنها لا تستهزىء بالبشارة ولكنها تستغربها ولا تطمئن اليها لأول وهلة ، ولهذا يروي الاصحاح الثالث عشر عنها أنها ضحكت في باطنها وأنها أنكرت الضحك حين سمعت مــن ضيوف ابراهيم سؤالا فيه شيء من صبغة الملام :

« وقالوا له : أين سارة امرأتك ؟ فقال : ها هي في الخيمة، فقال اني أرجع اليك نحو زمان الحياة ـ أي الربيع ـ ويكــون لسارة امرأتك ابن . وكانت سارة سامعة في بــاب الخيمة وهــو وراءه ، وكان ابراهيم وسارة شيخين متقدمين في الأيام ، وقــد انقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء فضحكت سارة فــي باطنها

قائلة : أبعد فنائي يكون لي تنعم وسيدي قد شاخ ؟ فقال الرب لابراهيم : لماذا ضحكت سارة قائلة : أفبالحقيقة ألد وأنا قــد شخت • هل يستحيل على الرب شيء ؟ في الميعاد أرجع اليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة ابن . فأنكرت سارة قائلة : لم أضحك، لأنها خافت ، فقال : لا بل ضحكت »

فالمواضع التي ورد فيها الضحك في كتب العهد القديم انما كانت تنديدا بخليقة الاستهزاء والسخرية ، أو كانت بمعنــى الاستهزاء الذي يرد الاستهزاء على أصحابه ، ومن هذا القبيل ما ينسب الى الاله أو الى عباده الصالحين ..

وبهذا المعنى نسب الى أيــوب حيث جــاء في سفره : « لا ترفض تأديب القدر لأنه هو يجرح ويعصب ، يسحق ويــداه تشفيان ، في ست شدائد ينجيك وفي سبع لا يمسك بسوء ، في الجوع يفديك من الموت وفي الحرب من حد السيف ، للمراجعة من سوط اللسان . فلا تخف من الخراب اذا جــاء ... تضحك علــى الخراب والمحل ولا تخشى وحوش الأرض . »

وهنا يعود أيوب فيهزأ بالخراب والمحل بعد أن كان ضحكــة لهما أو ضحكة للهازلين الذين حسبوه فريسة لهما وحسبوا الا نجاة له من مصابه بهما وبغيرهما من ضروب المحنة والبلاء .

لا جرم يقال عن الضحك بمعنى الاستهزاء . كما جــاء في الأمثال : « انه في الضحك يكتئب القلب وعاقبة الفرح حزن » .. أو كما جاء في الجامعة : « ان الحزن خير من الضحك لأنه بكآبة الوجه يصلح القلب .. »

ولم يذكر الاستهزاء بخير في كتب العهد القديم الا أن يكون ردا على المستهزئين وعقابا للسخرية والمجون .

على أن الضحك قد ورد في العهد القديم بمعنى السرور مقابلا للحزن مصحوبا بالغناء ، كما جاء في المزامير بعد رد السبي « اننا ... حينئذ امتلأت أفواهنا ضحكا وألسنتنا ترنما. »

ولا يلزم في هذا المعنى تفسير الضحك بالأسباب التي أجملناها فيما تقدم ، ولكنه ــ على هذا ــ لا يخلو من الشعور بالنقيض بعد النقيض ، اذ ينتقل المرء من الأسر الى الطلاقة ، فيعبر عن فرحه بالضحك والغناء .

في الانجيل

أما في العهد الجديد فقد جاء ذكر الضحك في انجيل لوقا على لسان السيد المسيح حيث يقول وقد رفع عينيه الى تلاميذه :

« ورفع عينيه الى تلاميذه وقال : طوباكم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الله . طوباكم أيها الجياع الآن لأنكم تشبعون . طوباكم أيها الباكون الآن لأنكم ستضحكون . »

وهنا يأتي الضحك مقابلا للبكاء ولا يخلو من دواعي الضحك في جميع الأحوال وأهمها تبدل الحال والمقابلة بين النقيضين .

وهذه الشواهد من هذه الكتب الدينية التي يقرأها المؤمنون

بها ويقدسون ما فيها ـ خير ما يستشهد به على طبيمة الضحك في حالات متعددة ، لأن هذه الدواعي تبرز في مواضعهـا بروزا واضحا بما يقابلها من شعور القداسة ، وتنبئنا عـن أنـاس متباعدين في الأزمنة والأمكنة والطبائـع والأخـلاق ، فنعلم أن الانسان انسان في كل زمان ومكان ، وان الضحك خاصة انسانية تعم بني الانسان .

الانسانية والفكاهة

أيا ما كان القول في تعريف الضحك وتعليله ، فمن أصح الأقوال مع جميع التعريفات والتعليلات أن الضحك ـ كما قال برجسون ـ ملكة انسانية من طرفيها ، فلا يضحك الا الانسان ، وما من شيء يضحكنا الا أن يكون « انسانيا » في صورة من صوره ، ولو على سبيل التشبيه .

ولنا أن نقول ان الانسان حيوان ضاحك كما نقول ان الانسان حيوان ناطق ..

أفنعني بذلك أن كل انسان يضحك بلا استثناء ؟

كلا . الا كما نعني أن كل انسان ينطق ويفكر ويتكلم بلا استثناء .

فهناك خرس لا ينطقون ، وهناك بله لا يفكرون ، وهناك صغار أو همج تتولاهم الغرائز على نحو قريب من سيطرة الغرائز على الاحياء التي لا تساوي البشر في الخلق أو في الذكاء .

ولكننا مع ذلك نقول ان الانسان حيوان ناطق ونريد بذلك أنه ناطق « بالقوة » على اصطلاح المناطقة ، أو بالاستعداد العام في أبناء نوعه كما نقول في عرف المصطلحين ، وكذلك يقال ان الانسان حيوان ضاحك ومنه جماعات بدائية لا تفهم الضحك ولا

تدري موقعه من أعمال الناس ، ولا تميز بين المضحكات وغيرها من الاعمال المخالفة للمألوف ، لأن مخالفة المألوف بين أبنائها ظاهرة نادرة جدا لانطباعهم على العرف المتوارث الذي لا يخالفونه الا وقعوا في محظور « المحرمات » ... مع قصورهم عن المقارنة التي تتضح منها النقائض ومواطن الضحك أو الاستغراب ..

ولعل هذا العجز عن الضحك في هذا الطور من أطوار الانسانية معزز لقول القائلين ان الضحك خاصة انسانية لا يشترك فيها عامة الاحياء ، فلا يضحك الانسان وهو - بعد - قريب من أطوار الحيوانية في حكم الغريزة وغلبة العادة على التفكير ، واذا رجعنا الى تفسير برجسون في هذا الصدد فلا محل للمفاجأة هنا من جريان الانسان على سنة الالات في اطراد العمل بغير تفكير ، فان القبائل البدائية المغرقة في الهمجية تجري كلها على هذه السنة ، ولا يكون فيها مخالفا للمألوف الا الذي يشذ بالتصرف على خلاف الوتيرة المطردة والنهج المرسوم.

أما بعد هذا الطور من الهمجية البدائية فالشعوب جميعا تعرف الضحك وتعرف واضعه وموضوعه بالتجربة العملية وان لم تعرفهما بالتفسير والتقسيم ..

ونريد بموضوع الضحك من يكونون أضحوكة الناس واختراعها وحكايتها كالفنانين والندماء ..

ونريد بموضوع الضحك من يكونون أضحوكة الناس بالغفلة أو النقص أو التصرف المتناقض الذي يحول شعور ناظره من وجهة الى وجهة على حين غرة على الاجمال .

الامم الضاحكة

وقد جرت عادة المعاصرين على وصف بعض الأمم بالفكاهة وتجريد بعضها منها أو وصفها بجهلها وبطء الاحساس بها عند المقابلة بينها وبين الأمم « الفكاهية » .

والثابت الذي لا شك فيه عن جميع الأمم أنها أخرجت نوابغ الفكاهة في جميع أجيالها ، وانها في العصر الحاضر تمثل الفكاهيات وتعرضها على جمهرة من أبنائها ، فلا توجد أمة متحضرة لها تاريخ قديم خلت من نوابغ الفكاهة ومن آثار هؤلاء النوابغ في الآداب والفنون .

ولكننا نرى أن احصاء النوابغ هنا لا يفيدنا كما يفيدنا دليل الأمثال التي يتداولها الناس ويتوارثونها جيلا بعد جيل ، فان آثار النوابغ قد تكون مقصورة عليهم وعلى فئة من قرائهم أو من القادرين على الاستمتاع بفكاهتهم ، ولكن الأمثال الشائعة ترجمان صادق لتفكير الأمة وشعورها وطريقتها في التعبير عن تجاربها ، وهذه الطريقة تكاد أن تتفق في جميع الأمم أو تتقارب غاية التقارب في المضامين والمرامي وان لم تتقارب في اللفظ والتركيب ...

وهذه أمثال الأمم بين أيدينا تقترن فيها الحكمة أو تأتي فيها الحكمة من طريق الفكاهة على أسلوب تمتزج فيه السخرية بالتهكم والعطف والدعابة ، وتؤخذ فيه الحكمة مأخذ الجد والمزاح في وقت واحد ، لأنها تشير الى عواقب الخطل والحماقة اشارة التعقيب بعد مرور المئات من الأمثلة والقرائن والمناسبات

فهي تتكلم في أمان بعد فوات الضرر وقبل وقوعه على المقصودين بالنصيحة والتذكير .

وعلى سبيل التمثيل بالواقع نستشهد هنا بالأمثال في أمتين من أمم المشرق وأمتين من أمم المغرب ، يقال عن احداهما انها أمة ذات فكاهة أو أمة فكاهية ويقال عن الأخرى انها لا تفطن للفكاهة وانها اشتهرت بالجهامة وأخذ الأمور كلها بالجد والصراحة التي لا تعرف التورية والتلميح .

ففي المشرق أمة الفرس مشهورة بالنكات القديمة والحديثة من عهد الحضارة الكسروية ، وأمة اليابان مشهورة بالكد والدأب والانصباب على العمل والتكليف .

وفي المغرب تقابل هاتين الأمتين الأمة الفرنسية في صفة الفكاهة والأمة الالمانية في صفة الجهد والجهامة .

وهذه طائفة من أمثلة الأمة الفارسية ـ التي يقال عنها انها فرنسا الشرق ـ نتبعها بطائفة من أمثلة الأمة اليابانية بغير اختيار بين صفحات الكتب الجامعة لأمثال هاتين الأمتين .

أمثال فارسية

الصدق والسكر زميلان

الحب والعطر لا يختبئان

الخادم الجديد أسبق من الغزال

ليس القلب مائدة تبسط لكل ضيف

الذهب والحجر من معدن واحد في الصندوق

الخائط عريان والاسكاف حاف

الجاهل لا نفع فيه ، لا هو انسان ولا هو حمار

يبيع الجلد قبل صيد الغزال

من دواعي الرثاء أن تنفق الذهب في الطـلاء

لا لزوم للسمك في بركة بلا ماء

الكلام يلد الماء والأمطار تلد الثلوج

ما الفائدة ؟ عندما أستطيع لا أعرف وعندما أعـــرف لا أستطيـــع !

* * *

وهذه متفرقات بعددها ـ اثني عشر ـ من أمثال الأمــة اليابانية في معارض شتى من حكمة الحياة :

الحب لا يميز بين « الميكاد » والفلاح

قد ترى السماء من ثقب ابرة

صدر الانسان أصون الصناديق لاسراره

نصف الناس يضحكون من النصف الاخر، والنصفان حمقى

اذا تقدمت الحماقة رجعت الحكمة

أعتى العواصف لا تثير الموج في أعمق الآبار

ما من شجرة تحمل الأرز مطبوخا

لا السكير يدري بعار الخمر ولا المفيق يدري بسلطانها

لا يرجع الضحك بما أذهبه الغضب

المبالغة في التحية ازدراء

اجمل الغلال نبت في حقول الاخرين

اقرض نفسك تعلم لماذا يصيح المقروض .

* * *

والأمة الفرنسية أشهر أمم الغرب بالفكاهة فيما تداولته الألسنة من شهرة الأمم . وهذه متفرقات من أمثالها :

لا تذهب الفضيلة بعيدا الا أن يكون الغرور في ركابها

حب الذات أبرع المتملقين

المذنب المحبوب سرعان ما تنكشف براءته

خيال بلا علم أجنحة بلا أقدام

الحمقى القدماء أحمق من اخوانهم المحدثين

البساطة المفتعلة تكلّف مطلي

لا يقول عن الحظ أنه أعمى الا الذي لا يراه

تزيدنا السن حمقا كلما زادتنا حكمة

أصدقاؤنا الأعزاء يقولون كما نقول

الحب مملكة المرأة

للقلب منطق لا يعرفه المنطق

الذي يحسن الحساب لا يثق في حساب

* * *

وتلي هذه الأمثال الفرنسية طائفة في مثل عددها من الأمثال الألمانية ، وهذه هي :

سفينة وتدها من الذهب ترسو في كل ميناء

ان لم تكن مطرقة فكن سندانا

الكيس الفارغ لا يقف مستقيما

بطن فارغ أشجع من رأس ملآن

الضرير أقل عثرات من البصير

من بدأ بالألف انتهى الى الياء

التخمة أقتل من الجوع

طريق الشحاذ لا ضلال فيه

آدم وحواء أكلا التفاحة، ونحن نطالب بقائمة الحساب

امرأتان طيبتان في الدنيا :احداهما ماتت والأخرى مفقودة؟

المرأة التي لا يصحبها أحد يصحبها الجميع

يضحك من الندوب من لم يعرف الجراح

وهذه اثنا عشر مثلا من كل أمة مشهورة بالفكاهة أو مشهورة بالجهامة . غير أننا لو جعلناها عشرة أضعافها لما تغيرت نسبة الموازنة بينها ، ولا خرجنا منها بتفضيل حاسم لأمة على أمة حين نقتبس فكاهة الأمم من تجاربها وأمثالها ، فكلها سواء في مزج الجانب المضحك بالجانب الحكيم من تجارب الحياة المتكررة ، ولا شك أن هذه التجارب وهذه التعبيرات عنها أدل على ملكة الفكاهة الشائعة بين بني الانسان من الأقوال المتفرقة على ألسنة الآحاد .

***

وهناك مقياس آخر للفكاهة الشائعه بين بني الانسان نرجع فيه الى مواسم الفكاهة التي تعرض لجميع الأمم في حالات متماثلة ، وهي حالات التنفيس عن الحرج أو حالات التمرد

والاحتجاج على البدع الشائعة ، ولا سيما البدع التي حان لها أن تزول أو تبدلت دواعيها بتبدل الأحوال .

وشعوب الصقالبة في أوربة الشرقية وأوربة الوسطى من الشعوب التي اشتهرت بجهل النكتة وخشونة الفطرة وقلة الفطنة لكل معنى في القول غير معناه الصريح الذي يفهم على وجه واحد ولا يفهم على وجهين كما يغلب على جميع المضحكات ..

الا أن هذه الشعوب قد رويت عنها نوادر في موسم الحرج لا تفضلها من نوعها نوادر الشعوب الغربية في مثال هذه المواسم.

وهذه متفرقات من تلك النوادر مأخوذة من الصحف أو من مجاميع الفكاهة العالمية التي تصدر من حين الى حين وتتمثل فيها أمزجة الأمم التي تروى تلك النوادر عنها على غير قصد من جامعيها :

* أرادت اذاعة روسية أن تطلع الفلاحين على أجهزة الاذاعة وأن يشترك كل منهم في ارسال الحديث الى العالم بكلمة واحدة لا يزيد عليها ، فلما تقدم الفلاح الأول وسئل أن ينادي بالكلمة الوحيدة صاح بملء فيه : النجدة !

* وطاف مفتش من مفتشي الدعاية بين الفلاحين المتذمرين فقال في بعض القرى للشاكين من قلة الطعام والكساء :

« ماذا تقولون ؟ أتشكون من أبدع المذاهب الاجتماعية من أجل لقمة وخرقة ، فماذا عساكم قائلين لو رأيتم الافريقيين العراة الذين لا يعرفون الخبز ولا الطعام المطبوخ في مجاهل القارة السوداء ؟ »

فحك أحد السامعين رأسه وقال :

« أظن يا حضرة الرفيق أن هؤلاء سبقونا الى أبدع المذاهب الاجتماعية » !

* وساح تاجر مجري في روسيا والأقاليم المجاورة لها فجعل يرسل التذاكر البريدية الى أصحابه كلما نزل بعاصمة من العواصم ، فكتب في التذكرة الاولى : تحيات من موسكو الحرة ، وكتب في التذكرة الثانية : تحيات من وارسو الحرة ، وكتب في التذكرة الثالثة : تحيات من براغ الحرة .. ثم صمت شهرا وجاءت الى أصدقائه من باريس تذكرة يقول فيها هذه المرة : تحيات من الحر رابينوفتش !

واقترب غريب في بودابست من جندي الشرطة ليسأله عن الساعة ، فنظر الشرطي الى النوافذ وقال له : « انها الساعة الثامنة وثلاثون دقيقة بالضبط » ..

فعجب الزائر الغريب وفاتحه بعجبه قائلا : « كيف عرفتها وأنت لم تنظر في ساعتك ؟ »

وقال الشرطي : « هذه النوافذ المغلقة في هذه اللحظة دليل على ميعاد الاذاعة الاجنبية » !

* واجتمع ثلاثة مساجين في أحد المعسكرات فقال أولهم همسا : أنا هنا لأنني متهم بمشايعة راداك ، وقال الثاني : أنا هنا لأنني متهم بتأييد راداك ، وقال الثالث : أنا هنا لأنني راداك [1] .

١ ـ Laughter incorporated

وقد نقلت عن الألمان في أيام هتلر حكايات يتداولها الشعب الألماني من قبيل التمرد والاحتجاج على شدة الحجر أو على البدع الاجتماعية ونختار حكاية من كل منها تنبيء عن سائرها .

فمن حكايات التمرد على الحجر وسوء الحال أن رجلاً ضاقت به الدنيا فعول على الانتحار واشترى حبلا ليشنق نفسه فانقطع الحبل ونجا الرجل من الموت ، لأن الحبل « ارساتز » ، أو تقليد صناعي .. فاشترى سما من صيدلية وضاعف المقدار فلم يمت لأن السم « ارساتز » أي تقليد صناعي للمواد التي تصنع منها السموم .. واشترى مسدسا وأطلقه على نفسه فلم يمت لأن المسدس والرصاص كله « ارساتز » لا يميت .. فلما يئس من الموت عدل عن الانتحار ، وأجمع عزيمته على البقاء واحتمال الحياة على علاتها ، وذهب الى مطعم أكل فيه وشرب وأفرط في أكل اللحوم وشرب الجعة تعويضا لما فاته من متعة الحياة في اليومين السابقين .

حمات في هذه المرة ، لأن الطعام والشراب « ارساتز » !

وشاع بين الفتيات زي الملابس القصيرة التي تكشف عن الصدور والسواعد والسيقان ، وعاد أحد الازواج الى بيته في بعض تلك الأيام فاستقبلته زوجته متهللة وقالت له : أتدري يا فلان ! انهم يبيعون الفساتين بالتقسيط على عشرة أقساط ، وقد انتهزت الفرصة واشتريت فستانا يوفر عليك سداد ثمنه الكبير دفعة واحدة .

فنظر الزوج الى امرأته التي كادت أن تبدو أمامه بغير

كساء ، وقال وهو يظهر الموافقة على مضض :

ـ أظن أن هذا هو القسط الأول من الفستان !

النوادر القرقوشية

ان الاستعداد لتأليف الفكاهة التي تنفس بها الأمم عن صدورها في أوقات الحرج يكاد يتساوى بين جميع الأمم ومنها ـ أو في مقدمتها ـ الأمم التي لم تشتهر بالنكتة واشتهرت على نقيض ذلك بأنها تجهلها ولا تحسنها ..

ونقول ان هذه الأمم في مقدمة الأمم التي تؤلف النكات في هذا الغرض لأنها في الغالب هي الامم التي تبتلى بالحرج وتعز عليها حرية القول ، فلا يوجد في العصر الحاضر نظير لهذه النوادر في الأمم التي تملك حرية النقد وتجهر بآرائها في حكومتها وحكامها ، ولا محل للمقارنة بين الشعوب الأوربية في هذا الباب من أبواب الفكاهة لأنها لا تتساوى في ظروفه ودواعيه ، وانما تستطاع المقارنة بين النكات المتقدمة والنكات التي شاعت في مصر على عهد « قره‌قوش » ودونها « ابن مماتي » في كتابه المسمى « الفاشوش في حكم قراقوش » وليست كلها من تأليفه وابتكاره ، بل هي مما يشيع مجهول المصدر ثم يقاس عليه ويظل في طي الكتمان الى حين ..

واحدى هذه النوادر أو النكات قد سبق لها نظير في النوادر التي استشهد بها فرويد وهي نادرة الحدّاد المحكوم عليه بالموت .

قيل ان غلاما لقره قوش قتل نفسا فحكم عليه بالشنق ، ثم تشفع لديه الشفعاء وقالوا له : انه حدادك ينعل لك الفرس

ويخدمك ، فان شنقته لم تجد غيره، فنظر قره قوش ناحية الباب ووقعت عينه على رجل قفاص فقال : هذا القفاص لا حاجة بنـا اليه ، فاشنقوه في مكان الركبدار ، وهي وظيفة الغلام الحداد عنـده !

وعلى هذا المثال تجري النوادر « القرقوشية » التي أثبتهـا « ابن مماتي » في كتابه أو تناقلها الرواة على لسان غيره .

* ومنها نادرة الرجل الذي أوثقه الناس وحملوه حيـا ليدفنوه وهو يصيح في النعش مستغيثا بسره قوش ، فلما سمعه قره قوش ترك المشيعين يمشون به وقال له : ويحك ! لا أصدقك وأكذب مائة من ورائك !

* وقيل ان قره قوش نشر قميصه فوقـع القميص مـن الحبل ، فتصدق بألف درهم وقال : لو كنت ألبسه ساعة وقوعه لانكسرت

* وقيل ان جنديا نزل في مركب ، وكان به فلاح وزوجتـه وهي حامل في سبعة أشهر . فصدمها الجندي وأسقط حملهـا فأخذ زوجها بتلابيبه وقاده الى قره قوش ، فقضى على الجندي أن يأخذ الزوجة ويطعمها ويكسوها ولا يعيدها الى زوجهـا الا وهي حامل في سبعة أشهر ! ..

* وشكا اليه مدين أنه يجمع دينه ويذهب به الى صاحب الدين فلا يجده ، ثم يأتي هذا فيطالبه ويلح عليه وهو خالـي الوفاض لا يملك السداد ، فأمر قره قوش بحبس صاحب الدين حتى يعرف المدين موضعه متى جمع المال المطلوب منه ، ولا يضيع

الدين على صاحبه بين البحث والتأجيل ..

* وكان لقره قوش باز يصيد به فطار الباز ولم يعد اليه، فأمر باغلاق أبواب المدينة ليرجع الباز اليه اذا أغلقت جميع الأبواب !

* وشكا اليه الفلاحون بردا أصاب القطن وأتلفه والتمسوا منه أن يعفيهم من الضريبة ذلك العام ، فأبى أن يعفيهم لأن القطن انما أصيب بالبرد لاهمالهم وقلة درايتهم ، ولو زرعوا معه صوفا لما أصابه التلف من برد الشتاء !

ومن باب هذه الحكايات عن قره قوش حكايات كثيرة يتناقلها المصريون عن الحكم التركي في عصر المماليك وبعد عصرهم الى أيام الخديو اسماعيل ..

* ومنها أن حاكما تعود أن يقترض مالاً من بعض الصيارفة ويكتب له وثيقة بها ثم يأمره بابتلاعها اذا جاءه في الموعد مطالبا بحقه . ولا يزال يقترض ويأبى السداد على هذا النحو ويضيف الدين الجديد الى الديون القديمة حتى يئس الصيرفي من سداد جميع الديون ، فلما استدعى الصيرفي بعد ذلك جاءه ومعه ورقة شفافة ورجاه أن يكتب له الوثيقة عليها .. ليسهل عليه ابتلاعها في موعد السداد .

* ومنها أن واليا كان يجمع الضرائب ولا يقبل عذرا في تأخيرها .. ولا يزال يقول لمن يعتذر بقلة المال :

ــ ماذا ؟ أليس لديك أربعون ريالا ... ؟

وعلم القوم من تكرار هذه « الأربعين » ان الرجل يملك

أربعين ريالا فلا يصدق أن أحدا لا يملكها مثله ، ونقبوا دفائنه حتى عثروا بالثروة المجهولة ، أو المعلومة ، فلم يضرب الوالـي بعدها أحدا يماطل في الضريبة ، وجعل يقول لكل معتذر :

ـ من أين لك أربعون ريالا يا مسكين ؟ .. أنا لا أملك ريالا احدا من الأربعين ..

* ومنها أن واليا كان يصلي في أخريات أيامـه ويتبـع الصلاة بالدعاء والنحيب ويسأل الله أن يكفر له ذنوبه لأنه قتل أربعـــة .

وسمعه زميل له فأدهشه أن يستعظم هذا الذنب اليسيـر وينحب هذا النحيب من أجل أربعة قتلهم وهم في حسابه عـدد غير كبير ، فقال له كأنه يؤنبه :

ـ ألم تقتل في حياتك غير أربعة يا أغا ؟

قال : « لا يا صاحبي .. أربعة من الترك ، أما الفلاحون فلا عداد لهم فيما أذكر » !

وأشباه هذه النوادر لو أحصيت لاجتمع منها مجلدات تربي على العشرات من أمثال كتاب « الفاشوش عن حكم قـره قوش » وهي جميعا من تأليف أمة مشهورة من قديم الزمن « بالقفش » والنكتة السريعة ، فاذا قوبلت هذه النوادر بنوادر الأمم التي لم تشتهر بالفكاهة في أوربا الحديثة ظهر من المقابلة أن الاستعداد متقارب أو متساو بين جميع الأمم ، وانما تزيد النكتة المصرية بطابع خاص بها وهو الجمع بين التنفيس عن الحرج وبين وصف الحاكمين بالغفلة والبلاهة . وسبب هذا الفارق أيضا راجع الى

الظروف الاجتماعية لا الى طبيعة الضحك في النفس الانسانية ، فان الحاكم الذي تصيبه النكتة المصرية من غير أهل البلد فلا ضير من اتهامه بالغفلة والبلاهة واعتزاز المحكومين على الحاكمين بالفطنة والدراية ، ولكن هذا الاعتزاز في أوربا الحديثة يصيب المحكومين كما يصيب الحاكمين لأنهم من عنصر واحد ، فلا حاجة في النكتة هنا الى أكثر من التنفيس عن الحرج وتمثيل الحجر على الألسنة والأقلام .

فكاهات عهود التحول

وأتم من هذه المواسم الفكاهية التي تنفس بها الأمم عن صدورها فكاهة أخرى أعم وأبقى أثرا لأنها تشمل العهود المتحولة في حضارة واسعة تحيط بأمم كثيرة ، وتأتي هذه الفكاهة في أوانها حين تؤذن العهود بالتحول لتزعزع أركانها وزوال مقوماتها ، فينبري لها نابغ ملهم في فن النقد الفكاهي يجسمها في « شخصية » مخترعة يجعلها هدفا للسخرية والتسخيف أو يعمد الى شخصية خيالية قائمة يلبسها ذلك الثوب ؤ يودعها بقايا النفاق والتكلف والتقاليد الخاوية التي تتخلف بعد أجيال عدة في أعقاب العهود الدائلة التي آذنت شمسها بالأفول .

من هذه العهود المتحولة عهد الفتك واشباع البطون والشهوات في القرن الخامس عشر للميلاد ، وقد تصدى له الأديب الفرنسي رابليه Rabelais (١٤٩٤ ـ ١٥٥٣) فمثل

ملوكه وأبطاله في شخصيتين خالدتين أحداهما شخصية جارجنتوا Gargantua الذي يلتهم الآدميين والأنعام نهماً ولا يشبع ولا يكف عن الطعام ، والأخرى شخصية بكروشول Picrochole الذي ضربت نفسه بالعدوان وهانت عليه النفس البشرية يزهقها لقليل من المال أو لنزوة من نزوات الساعة أو لغير شيء غير العتو والطغيان .

وليس أدل من اصطحاب هذه المساوىء في العهود الدائلة من آيات القرآن الكريم في سورة الفجر حيث تنعى دول التابعة والفراعنة والجبابرة جميعا في أمثال هذه العهود :

« ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب ان ربك لبالمرصاد » الى قوله تعالى : « بل لا تكرمون اليتيم ولا تحضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حباً جمّاً » .

وهذه المفاسد التي جمعتها هذه الآيات هي بعينها مفاسد العهد الذي يمثله جارجنتوا في النهم ويمثله بكروشول في الفتك والعدوان ، وكلاهما بعد ذلك باغ نهم على زيادة البغي في أحدهما وزيادة النهم في الآخر .

***

ومن العهود المتحولة عهد الفروسية في القرن السادس عشر بين نبلاء الاسبان على الخصوص ، فان هذا العهد قد شاخ

وشاه حتى بطلت فيه النخوة والحماسة فأصبحت أكذوبة خاوية يتعلق المخدوعون بظواهرها أو الجامدون على بقاياها ، وقـــد تصدى لهذا العهد كاتب أسباني من طراز رابليه هو سرفانتيز Cervantes صاحب كتاب دون كيشوت الذي تضمن من أمثال العرب وكلماتهم المأثورة ما يكاد يسلكه في عداد الكتب العربية ، ولم يكن ذلك عبثا أو لغوا بل كان من تمام التعبير عن العهد الآفل لأنه وافق شيوع التقاليد العربية بين لأسبان وأمم القارة الغربية .

ويعاصر هـــذه العهود أو يسبقهـــا بقليل عهـــد الألاعيب « الشريرة » الذي فشا بين الولايات الالمانية على أيام النبلاء قبل الذين قيل فيهم انهم نصف أمراء ونصف قطاع طريق ، وتمثلت ألاعيب هـــذا العهـــد في شخصيـــة القروي أولنسبيجـــل Eulenspiegel الذي كان كالمسخ المشوه في تصـــوره لأولئك العابثين المحتالين الأشرار ، ويقال انه عاش في برنزويك وان توماس مورنر Murner (١٤٧٥ ــ ١٥٣٠) الذي جمع نوادره بعد ذيوعها نحو قرن من الزمان ، ولم تثبت نسبة الكتاب اليه ولكن ثبت ذيوع النوادر قبل ذلك بغير خلاف .

ثم جاء الكاتب البلجيكي شارل دي كوستيه Charles de Coster (١٨٢٧ ــ ١٨٧٩) فاستعار هذه الشخصية وأودعها روحـــا فلمنكية مرحة كادت أن تجعلها نموذجا للطبيعة الفلمنكيـــة في سذاجتها التي آذنت بالتحـــول عند نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

وخاتمة المطاف في هذه المواسم الفكاهيـــة كتاب « أعاجيب

البارون منشهاوزن » الذي ألفه الكاتب الالماني رودلف أريك راسب Raspe وأدار حوادثه أو نوادره على شخصية واقعية عاش صاحبها في القرن السابع عشر وعاد بعد خدمته في الجيش الروسي يصدع الأسماع بأخبار البطولة التي يرويها عن نفسه وخوارق الشجاعة والدهاء التي امتاز بها في وقائع الحرب والسفارة بين الملوك والامراء ، ومنهم أمراء المشرق في الآستانه والقاهرة »

تلك الشخصية الواقعية هي شخصية كارل فردريك منشهاوزن (١٧٢٠ ـ ١٨٩٧) نموذج المفاخر المدعاة بين عصر السيف وعصر البندقية والمدفع ، واحدى أعاجيبه انه نسي النار التي يشعل بها البارود فأوقد زناد البندقية بضربة على عينه أطارت منها الشرر فانطلق الرصاص .. واحدى هذه الأعاجيب أنه أراد الخروج من القلعة المحصورة فركب القذيفة التي أطلقت عليها فعادت به أدراجها الى حيث أراد . وكانت أعاجيب منشهاوزن هذا خاتمة العهد الذي راجت فيه أباطيل البطولة بعد عصر الفروسية وقبل عصر السلاح الحديث ، وراجت فيه على الجملة أخبار السياحات والرحلات مما يصدق العقل أو لا يقبل التصديق .

وهذه فكاهات ظهرت لمناسبات متشابهة بين فرنسا وأسبانيا وألمانيا وبلجيكا وتقبلتها الامم من المغربيين والمشرقيين حيث تداولتها أيدي القراء بمختلف اللغات ، ومن هذه الأمم من اشتهرت بالفكاهة ومنها من اشتهرت بجهلها وبطء الالتفات اليها ، ولا يسع الناقد عندالمفاضلة أن يرجح النكتة في احداهما

على النكتة في مسواها ، فربما كان بعض النكات في أعاجيب منشهاوزن أبرع من نكات دون كيشوت ، وربما كانت النكتة الاسبانية أحيانا أبرع من النكتة الالمانية ، وعامتها من نسق واحد وطبقة واحدة تؤدي رسالتها في مناسباتها وتسجل الحقيقة التي أسفرت عنها المقابلة بين الفكاهات القومية ودلت على ان الضحك ــ كالمنطق ــ مزية انسانية توجد بالقوة كما توجد بالفعل حيث يوجد الانسان ، وأن اختلافها انما هو اختلاف بين الظروف والبيئات قبل أن يكون اختلافا بين الطبائع والأصول ، على أن طبائع الانسان العامة لا تمحو الفوارق بين المجتمعات في مواقعها المتباينة ، ولا تمحو الفوارق بين المجتمع الواحد في الأزمنة المختلفة والاحوال المتناقضة ، وليس من الطبيعي أن تكون الأمة الوادعة كالأمة الكادحة ، أو الأمة التي طال عهدها بالحضارة ومؤنساتها كالأمة التي تحضرت بعد وحشة أو مرت بها الحضارة ناشئة متقطعة ، ولا تشابه في الجد ولا الفكاهة أمة تمرست بالمظالم والشدائد وأمة لم تتمرس بها الا عرضا في الآونة بعد الأخرى .

فمهما تتفق طبائع الانسان فستبقى بعد ذلك بقية للصبغة القومية في الجد والفكاهة ، وفي العلم والعمل ، وفي التفكير والذوق ، وفي الضرورات والكماليات ..

فوارق الامم في الفكاهة

ونحن في هذه الرسالة نجمل القول في أصول الفكاهة لنستطرد منها الى فكاهة جحا أو الفكاهة المنسوبة اليه في الأمم

التي عرفته وتمثلت بحكاياتــه ، وهي الأمة العربية والأمـــة الفارسية ، والامـــة التركية . وكادت هذه الأمــة ــ أي الأمة التركية ــ أن تستأثر به في معظم نوادره حتى قيل ان جحا المشهور اليوم انما هو جحا جديد من مخلوقات البديهة التركية تنقطــع الصلة بينه وبين جحا القديم الذي عرفه العرب في أمثالهم ورجع به التاريخ الى صدر الاسلام ، فلا يجمع بينهما غير التسمية باسم واحد .

وأياً كان منشأه من الأمــة التركية فهناك « جحا » تنسب ليه الحكايات في اللغة العربية واللغة الفارسية ، فاذا عنيـــنا بفوارق الأمم في الفكاهة والمضحكات فليس من غرضنا في هذه الرسالة أن نستقصي الفوارق في جميع الأمم ولا حاجة بنا الى أكثر من تمييز الفوارق في خصائص الفكاهـــة بين السليقــة العربية والسليقة الفارسية والسليقة التركية ، فربمــا أعانت هذه الفوارق على اسناد الحكايات الى كل أمة من هذه الأمم حسب سليقتها الغالبة عليها ، ولا يكون هذا الاسناد بعد كل محاولة في ميسورنا الآن الا عـــلى سبيل الترجيح والتقريب دون الجــزم والتوكيد . ونحن في هذا كمن يقول ان فلانا عربي لأنه أسمر فيقول شيئا يستحق أن يقال لأنه لا يستحق أن يهمل ، ثــم لا يجاوز هذا الحد الى توكيد النسبة مع احتمـــال وجود البشرة السمراء أو المسمرة بين الشعوب الشقراء ، واحتمال وجــود البشرة البيضاء بين العرب وغيرهم من الشعوب السمراء .

وعلى هذا النهج من التغليب والترجيح نستطيع أن نميــز سليقة الامة في عامة شؤونها ثم غير السليقة التي تنتظر منها في

معارض الفكاهة ، لأن الصورة الفكاهيــة نسخة من الصــورة المحسوسة مبالغ فيها على مثال المبالغة في هذا الضرب من التصوير المشهور في اللغات الأوربية باسم الكاريكاتور ... وقد وجد هذا الكاريكاتور بالتعبير اللغـــوي في جميع الأمم قبل أن يوجـــد بالخطوط والرسوم .

فمن الوصف الصادق لسليقة الأمة العربية أن نقــول انها أمة شعرية منطقيـــة ، ومـــن الوصف الصادق لسليقة الأمـــة الفارسية أن نقول انها أمة صوفية دبلوماسية ، ومن الوصف الصادق لسليقة الأمة التركية أن نقول انها أمة عملية واقعية ..

والى أين تنتهي المبالغة « الكاريكاتورية » بالخيال والمنطق ؟

تنتهي الى الوهم والقياس مع الفارق أو مع الفوارق الكثيرة.

أما المبالغة الكاريكاتورية في السليقة الصوفية فقد تنتهي الى المحال والمحاولة واما هذه المبالغة في السليقة العملية الواقعية فقد تنتهي الى تحصيل الحاصل والحذلقة بما هو مفهوم مستغن عن التعريف .

وقد أعطانـــا الشاعر التركي المستعرب ـ ابن سودون اليشبغاوي مـــن أدباء القرن التاسع بمصر والشام ـ مثـــلا للسليقة التركية لا نظير له فيما نعلم من نظم شعراء العرب والترك ولا شعراء الأمم الغربية ، لأن اولئك الشعراء يعطوننا المثل فنأخذه من طريق التحليل والاستنتاج ، ولكن ابن سودون يعطينا المثل على غير قصد منه بمنظوماته التي تعــدو تحصيل الحاصل ويرسم لنا « الكاريكاتور » بيده ولا يدع لنا أن نرسمه ونستوحي ملامحه من خلال الألفاظ ومعانيها .

ونكتفي هنا بقصيدتين من شعره الذي أراد به الاضحاك بمحاكاة أدعياء المعرفة الذين لا يزيدون في حكمتهم على تعريف المعروف .

واحدى القصيدتين على قافية الألف المقصورة وهي :

إذا ما الفَتى في الناسِ بالعقــلِ قد سما
تيقَّنَ أَن الارضَ مــن فوقِهــا السما

وأَن السما مِن تحتِها الأَرضُ لم تزل
وبينهمــا أَشياءُ إن ظهرتْ تُــرَى

واني سأُبدي بعضَ مــا قد علمتُــه
لتعلمَ أَني مــن ذوي العِلــم والحِجى

فمن ذاك أَن الناسَ مــن نسلِ آدم
ومنهم أَبو سودون أَيضاً ، وإن قضى

وانَّ أَبــي زوجٌ لأُمّــي ، وأَنني
أَنا ابنهما والناس هــم يعرِفون ذا

وكم عجبٍ عنــدي بمصرَ وغيرِها
فمصرُ بهــا نيلٌ على الطينِ قــد جرى

وفي نيلهــا من نــامِ بالليل بلَّــهُ
وليست تبلُّ الشمسُ مــن نام بالضُحى

بها الفجـرُ قبل الشمس يظهر دائماً
بها الظهرُ قبل العصر : قَبلُ بلا مِرا
وبالشام أقـوامٌ اذا مـا رأيتهـم
ترى ظهر كـلٍ منهمُ وهو مـن ورا
بها البدرُ حالَ الغيمِ يخفى ضياؤهُ
بها الشمسُ حالَ الصحوِ يبدو لها ضيا
ويسخُن فيها الماءُ في الصيف دائمـاً
ويبردُ فيهـا الماءُ في زمـنِ الشِتـا
وفي الصين صينيٌّ إذا مـا طرقتَـه
يطنُّ كصينيٍّ طرقتَ سَوا سَوا
بها يضحكُ الانسان أوقاتَ فرْحِـه
ويبكي زمانَ الحُزنِ فيها اذا ابتلى
وفيهـا رجالٌ هـم خِلاف نسائهـم
لأنهـمُ تبـدو بأوجُهِهـم لحـى
عَجَبٌ عَجَبٌ عجبٌ عجـبٌ
بقـرٌ تمشي ولهـا ذَنَـب
ولهـا في بُزْبُـزِهـا لَبَـن
يبـدو للنـاسِ إذا حلبـوا

لا تغضبُ يومـاً إن شُتمـتْ
والنـاس إذا شُتِمـوا غضبـوا
من أعجب مـا في مصر يُـرى
الكـرمُ يـرى فيـه رُطب
أوسيـمُ بهـا البرسيـمُ كـذا
في الجِيـزَةِ قـد زُرِعَ القَصَب
زهـر الكتّـانِ مـع البَلسـا
ن همـا لونـانِ ولا كَذِب
كيهـودٍ في ديـرٍ خُلطـوا
بنصـارى حرّكَـهم طـرب
وقناطـرُ أُم الخمس بهـا
مـاءٌ في الحفـرةِ يَنْسَرِب
والمركبُ مـع مـا قـد وُسِقت
في البحـرِ بِطَـرْفٍ تنسحِبُ
والخيمـةُ قـال النـاسُ إذا
نُصبت فالحبـلُ لهـا طُنُب
البِيضُ اذا جاعـوا أَكلـوا
والسُّمْرُ إذا عطِشـوا شَرِبـوا

الناقــةُ لا منقــارَ لهـــا
والــوزَّةُ ليس لهـــا قَتَبُ
الــوزُّ يَبيضُ بثُقْبَتِـــه
وينـــامُ عليـــه فَيَنْثَقِب
والــوز الفَقْسُ بـــأَرضِ بلقِس
كــذا في المَقْسِ لــه زَغَبُ
لا بـــد لهــذا مـــن سبب
حَـــزٍّزْ . فَـــزٍّزْ . مـــا السبب ؟

وستمر بنا فيما يلي ألوان من النوادر المنسوبــة الى جحـا يحسب بعضها من نوادر تحصيل الحاصل ، ويحسب بعضها من نوادر الوهم أو القياس مع الفارق ، وبعضها من نوادر المحـال والمغالطة . ويساعدنا هذا التقسيم على الرجوع بها الى مصادرها مع التحفظ والتماس القرائن الأخرى مـــن التاريخ والمناسبات والشواهد النفسية أو الاجتماعية .

ونبدأ قبل البدء بعرض النوادر وتقسيمها فنقول : انه تقريب لا نرجو أن نبلغ به مبلغ الجزم والتوكيد ، ولكننا لا نرى مـــن أمانة البحث أن يهمل أو يصرف عنه النظر ، فلعله بعد كل مـــا يقال عن أحكامه « التقريبية » أصدق الموازين الميسرة لنا في هذا المبحث وما جرى مجراه من الروايات المشاعة بلا اسناد تبلغ مبلغ الجزم والتوكيد .

جحـا ... ونـوادره

جحا ... غير واحد

شيء واحد ثابت كل الثبوت في أمر جحا .

ذلك الشيء الثابت ـ قطعا ـ انه لم يكن جحـا واحدا ولا يمكن ان يكونه ، لأن النوادر التي تنسب الى جحا لا تصدر مـن شخص واحد ، ولا تزال دواعي اليقين باستحالة هـذه النسبة واضحة في كل قرينة وكل رواية يجوز الاعتماد عليها في تحري الوقائع ومن تنسب اليه .

يستحيل أن تصدر هذه النوادر عن شخص واحد لأن بعضها يتحدث عن أناس في صدر الاسلام ، وبعضها يتحدث عن أناس في عصر المنصور العباسي أو عصر تيمورلنك أو مـا بعده مـن العصور بأجيال .

ويستحيل أن تصدر عن شخص واحد لاختلاف الشخصيات التي تصورها في مجموعها ، فمنها ما يكون التغفيل فيه من جحا ، ومنها ما يكون فيه جحا صاحب الذكاء النادر والطبع الساخر الذي

يكشف عن الغفلة ويتندر على البلاهة ، ومن هذه الشخصيات من تتمثل فيه الحماقة بغير مراء ، ومنها من يتحامق ويبدو في كلامه وتمثيله انه يتكلف ما يعمل وما يقول استهزاء منه بمن يدعون الحكمة والذكاء .

ويستحيل أن تصدر هذه النوادر عن شخصية واحدة لتباعد البيئات التي تروى عنها ، سواء في الأمكنة أو العادات والأخلاق ، فقد يروى بعضها عن فارس ويروى بعضها عن بغداد أو آسيا الصغرى أو غيرها من البلدان الشرقية .

بل ربما قيل عن جحا انه نصر الدين التركي وقيل عنه انه أبو الغصن العربي الفزاري ، وقيل انه من النوكى الهاكعين كما يقال عنه انه من أصحاب الحالات والكرامات من المتسترين بالولاية وهم يجهرون بالهذر والبلاهة ..

ويستحيل أن تصدر هذه النوادر عن «جحا» وحده كائنا ما كان ، لأنها تنسب ــ بعينها ــ الى المجانين من أمثال هبنّقة وبهلول أو الى الاذكياء من أمثال أبي نواس وأبي العيناء .

ويزاد على هذه الاحالات جميعا ان طبيعة الفكاهة تختلف بين تحصيل الحاصل والقياس مع الفارق والمحاولة والمحال ، مما يجوز أن يتفق عرضا في نادرة أو قليل من النوادر ، ولكنه لا يتفق في العشرات والمئات .

ونحن قد نقرأ عن جحا في كتاب واحد فنفهم انه شخص موجود أو قابل للوجود ، لأنه متناسق الأخبار مطبوع في تفكيره وتعبيره على غرار واحد . ثم نقرأ عنه في كتاب آخر فنرى صاحب

الكتاب مضطرا الى تسويغ نوادره المتناقضة باسنادها الى المختلقين والمنتحلين ، أو بافتراء المفترين على « جحا » للنكاية والتشهير .

يقول الميداني صاحب كتاب الأمثال : « هو رجل من فـزارة كان يكنى أبا الغصن ، ومن حمقه أن عيسى بن موسى الهاشمي مر به وهو يحفر بظهر الكوفة موضعا فقال له : مالك يـا أبـا الغصن ؟ قـال : اني دفنت بهـذه الصحراء دراهـم ولست اهتدي الى مكانها . فقال عيسى : كان ينبغي أن تجعل عليهـا علامة . قال : قد فعلت . قال : ماذا ؟ سحابة في السماء كانـت تظللها ولست أرى العلامة ...

« ومن حمقه أيضا انه خرج من منزله يوما بغلس فعثر في دهليز منزله بقتيل فضجر به وجره الى بئر منزله فألقاه فيها . غير ان أباه أخرجه وغيبه وخنق كبشا حتى قتله وألقاه فـي البئر . ثم ان أهل القتيـل طافوا في سكـة الكوفة يبحثون عنه فتلقاهم جحا فقـال : في دارنا رجـل مقتـول ، فانظروا أهـو صاحبكم ؟ فعدلوا الى منزله وأنزلوه في البئر ، فلما رأى الكبش ناداهم وقال : يا هـؤلاء ! هل كـان لصاحبكم قـرن ؟ فضحكوا ومروا .

« ومن حمقه أن أبا مسلم صاحب الدولة لما ورد الكوفة قال لمن حوله : أيكم يعرف جحا فيدعوه الي . فقال يقطين : أنا ... ودعاه ، فلما دخل لم يكن في المجلس غير أبي مسلم ويقطين ، فقال : يا يقطين ! أيكما أبو مسلم ؟ »

ثم يقول الميداني بعد ذلك : « وجحا اسم لا ينصرف لأنـه معدول عن جاح مثل عمر من عامر . يقال جحا يجحو جحواً اذا

رمى ، ويقال : حيا الله جحولك أي وجهك . »

* * *

وجحا هنا ، كما وصفه الميداني ، شخصية مفهومة متناسقة ، لعل الخبر الذي جاء عن أبيه في خلال الكلام عنه يفسر بالوراثة ما فيه من خلة الحماقة . لأن جحا لم يصنع شيئا يزيد الشبهة في أمر القتيل بنقله من الدهليز الى البئر ، وأباه لم يصنع شيئا يزيل الشبهة بوضع الكبش في مكانه ، وكان لكل منهما مندوحة عما صنع لولا الحماقة في الأب وفتاه .

أو لعل الخبر عن اشتهار اسم جحا حتى سمع به أبو مسلم يفسر لنا وضع الروايات عنه بين الفرس أو اعتباره بينهم علما على البلاهة والفهاهة يسندون اليه ما شابه نوادره من الفكاهات الفارسية ، فليس في خبر جحا هنا غرابة بما نسب اليه أو نسب الى غيره ، ولك أن تقبل هذا الخبر دون أن تحتاج بعده الى توفيق أو تأويل .

ولكنك تقرأ عن جحا في غير كتاب الأمثال فلا ترى كتابا واحدا يستغني عن شيء من التوفيق والتأويل ، لغرابة الأخبار التي ترامت عنه وتلقفها الرواة فحاروا كيف يضعونها في موضعها بين أخبارهم ومن تروى عنهم تلك الأخبار .

ومن الاطالة على غير طائل في غرضنا من هذه الرسالة أن نحيط بكل ما وصف به جحا في كتب الأدب العربي ، فان المحصل منه كله أنه تناقض لا يستقر على قرار ، ولكننا نجتزىء بما كتبه ابن الجوزي اذ يقول في أخبار الحمقى والمغفلين انه ــ أي

جحا ـ « روي عنه ما يدل على فطنة وذكاء ، الا أن الغالب عليه التغفيل ، وقد قيل ان بعض من كان يعاديه وضع له حكايات . وعن مكي بن ابراهيم : رأيت جحا رجلا كيِّسا ظريفا ، وهذا الذي يقال عنه مكذوب عليه ، وكان له جيران يمازحهم ويمازحونه فوضعوا عليه . »

وهكذا يسمع عن الرجل ما يدل على ذكاء وما يدل على تغفيل ويوفقون بين الذكاء والتغفيل فيحسبون ان نوادر التغفيل من وضع المفترين عليه : وغير ابن الجوزي أناس يحسبون أنه من أصحاب الحالات والكرامات يتكلم ولا ينبغي أن يؤخذ عليه كلامه بظاهره لأنه يتعمد فيه اخفاء الأسرار الالهية بهذه المضحكات والخزعبلات ، وقد حسبه بعضهم من التابعين رواة الحديث ثم شكّوا في حقيقة اسمه كما شكوا في حقيقة مسماه .

وأما بعد ظهور جحا التركي ، الملقب بخوجة نصر الدين ، فالحكايات عنه تنسب الى رجل واحد وهي مما يمكن أن ينسب الى عشرة متباعدين في الزمان والمكان والعقل والمزاج ، وبعض هذه الحكايات متأخر الى ما بعد اختراع الساعات التي تحمل في الجيب وبعضها متقدم الى أيام الصحابة والتابعين .

نوادر له ولغيره

ومما لاريب فيه قطعا ـ أن رجلا واحدا لا يمكن أن تصدر عنه جميع هذه الحكايات ولو كانت متناسقة متساوقة تدل على عقل واحد ومزاج واحد وتتحدث عن فترة واحدة وبيئة واحدة

فاننا اذا فرضنا وجود هذا الرجل وجب ألا يكون له عمل الا أن ياتي بتلك النوادر والأضاحيك ووجب ألا يكون لعشرائه وأصحابه عمل غير النقل عنه واثبات هذه الاحاديث المنقولة ، وهو ما لم يحدث في حياة الهداة الأعلام الذين تنقل عنهم الاشارات فضلا عن الكلمات .

فالعجب أن تكون حكايات جحا من رجل واحد ، ولكنه لا عجب على الاطلاق في توارد هذه الحكايات وتلاقيها من أبعد المصادر ومهما يخطر على بالنا من غرابة ذلك فالواقع يزيل كل غرابة فيه ويرينا أن هذا الفيض من الحكايات ــ وما هو أغرب منه ــ يتلاقى من أقاصي أوربا الى أقاصي أفريقيا الى أقاصي القارة الآسيوية على امتدادها .

ومثال ذلك قصة تروى عن جحا وعن أبي نواس وعن رابليه الفرنسي الذي تقدمت الاشارة اليه ، وفحواها أن تاجرا بخيلا رأى طارقا فقيرا يتبلغ بالخبز القفار على رائحة شوائه أو طبيخه فطالبه بثمن هذه الرائحة ، وحار الفقير في أمره حتى أنقذه حلاّل المشكلات بحلٍّ من قبيل دعواه ، لأنه رن أمامه قطعا من الدراهم وقال له خذ رنين هذه الدراهم ثمنا لرائحة شوائك!..

ومن الذي روى هذه النادرة عن أبي نواس ؟

لم يروها كُتاب بغداد أو دمشق أو القاهرة ، بل رواها الكاتب الانجليزي انجرام Ingram في كتابه عن أبي نواس وأساطيره كما سمعها باللغة السواحلية واللغة العربية في أفريقية الشرقية ، وهذه ترجمة القصة كما نقلناها في كتابنا عن أبي نواس . قال انجرام ما ترجمته بحرفه على وجه التقريب:

« ان تاجرا ذبح معزة ومر بـه مسكين فجلس الى جـانب القدر لعله يستسيغ الخبز القفار باستنشاق رائحتها ، ثم لقي التاجر فقال له : انك أيهـــا السيد قد أحسنت الي أمس اذ منحتني رائحة معزتك فاصطنعت بها هنيئا. فأخذ التاجر بتلابيبه وهو يقول له : الآن علمت كيف ضاعت النكهة من لحمها . فقد اختلستها أنت اذن ولا ندري . وساقه الى هارون الرشيد ــ وقد كان شديد المحاباة للتجار ــ فحكم على المسكين بتغريمه اثنتي عشرة روبية يأخذها التاجر ثمنا لنكهة ذبيحته ، وخرج المسكين يبكي لأنه لا يملك فلسا من هذه الغرامة ، فوجد أبا نواس في الطريق . وعطف عليه أبو نواس حيث علم منه سبب بكائـه ، ووعده أن يساعده ، ثم أعطاه اثنتي عشرة روبية وأوصاه أن يغدو بها الى السلطان ولا يؤديها له حتى يحضر هو مجلسه . ثم كان الغد فجاء الى المجلس ورأى المسكين يعد الدراهم فأخذها منه ورنّها على الأرض ، وسأل التاجر : أسمعت رنينها ؟ قال : نعم . ومد يده الى الدراهم يريد أن يقبضها ، فرده أبو نواس وصاح به : حسبك . لقد وصل اليك الثمن رنينا برائحة . فاذا كان المسكين قد شبع من رائحة طعامك فأنت حري أن تملأ يدك من رنين دراهمـه ، وترك الروبيات للمسـكين ، وانصرف الى داره » .

هذه نادرة تروى في سواحل افريقية الشرقية ، ويتحدثون فيها بالروبيات وهم يذكرون نقود بغداد ، وهذه النادرة بشيء من التصرف فيها تروى في قصص جحا وتروى في قصص رابليه .

ومن النوادر ما يتوارد في خرافات ايسوب وحكايات ألف

ليلة ، كحكاية الحمار والثور مع صاحب الزرع ، وقد جاءت في أوائل ألف ليلة بالعبارة الآتية :

« اعلمي يا بنتي انه كان لبعض التجار أموال ومواش وكان له زوجة وأولاد وكان الله تعالى أعطاه معرفة الحيوانات والطير وكان مسكن ذلك التاجر الارياف وكان عنده في داره حمار وثور فأتى الثور الى مكان الحمار فوجده مكنوسا مرشوشا وفي معلفه شعير مغربل وهو راقد مستريح ، وفي بعض الأوقات يركبه صاحبه لحاجة تعرض له ويرجع على حاله ، فلما كان في بعض الأيام سمع التاجر الثور وهو يقول للحمار : هنيئا لك ذلك ، أنا تعبان وأنت مستريح تأكل الشعير مغربلا ويخدمونك وفي الأوقات يركبك صاحبك ويرجع وأنا دائما للحرث والطحن . فقال له الحمار : اذا خرجت الى الغيط ووضعوا على رقبتك الناف فارقد ولا تقم ولو ضربوك ، وامتنعْ عن الأكل والشرب يوما أو يومين أو ثلاثة فانك تستريح من التعب والجهد . وكان التاجر يسمع كلامهما فلما جاء السواق الى الثور بعلفه أكل منه شيئا يسيرا فأصبح السواق يأخذ الثور الى الحرث فوجده ضعيفا فقال له التاجر : خذ الحمار وحرِّثه مكانه اليوم ، فلما رجع آخر النهار شكره الثور على تفضلاته حيث أراحه من التعب ذلك اليوم ، فلم يرد عليه الحمار جوابا وندم أشد الندامة ، فلما كان ثاني يوم جاء المزارع وأخذ الحمار وحرثه الى آخر النهار . فلم يرجع الحمار الا مسلوخ الرقبة شديد الضعف . فتأمله الثور وشكره وحمده ، فقال الحمار : اعلم أني لك ناصح . وقد سمعت صاحبنا يقول : ان لم يقم الثور من موضعه فأعطوه

للجزار ليذبحه ويعمل جلده قطعا وأنا خائف عليك ونصحتك والسلام . فلما سمع الثور كلام الحمار شكره وقال : في غد أسرح معهم . ثم ان الثور أكل علفه بتمامه حتى لحس المذود بلسانه . فلما جاء النهار خرج التاجر وزوجته الى دار البقر وجلسا ، فجاء السواق وأخذ الثور وخرج . فلما رأى الثور صاحبه حرك ذنبه .. وبرطع . فضحك التاجر حتى استلقى على قفاه » .

هذه القصة جاءت متصلة بغيرها في ألف ليلة وليلة لمناسبة تجر وراءها مناسبة أخرى على الأسلوب المطرد في تسلسل الروايات بألف ليلة وليلة ، ولكنها جاءت في خرافات أيسوب منفردة ، على اختلاف في المغزى ، بالعبارة التالية :

« كانت معزة وحمار في حوزة صاحب واحد ، وكانت المعزة تغار من الحمار لأنه كان وافر الطعام يكفيه ويفيض منه ، فقالت له : ان حياتك نصب دائم ، تدير الطاحون وتحمل الأثقال ، فأنصح لك بأن تجمح يوما وتسقط في حفرة تستريح بعدها . فعمل الحمار بنصيحة المعزة وأصيبت رجله اصابة بالغة من جراء سقطته ، وارسل صاحبه في طلب البيطار ليسأله رأيه ، فوصف البيطار للحمار مرقا من طحال معزة وقال انه دواء صالح لعلاج دائه . فذبحوا المعزة لمداواة الحمار . »

« والمغزى من هذه الحكاية أن من نصب فخا لغيره جر البلاء على نفسه » .

وفي خرافات ايسوب نوادر أخرى يقل فيها التحوير

ويتقارب فيها المغزى ، مما تناقله المشارقة عن جحا وأمثالـه ، ومنها ما لم يرد في الخرافات القديمة كأنه أضيف اليها بعد عصر ايسوب أو بعد العصر المفروض له ولخرافاته ، ومنها مـــا هو قديم منقول عن الحكمة الموضوعة على ألسنة الحيوان ، وهـي شائعة في الشرق من الصين والهند الى البلاد العربية على اتساعها وتباعد أقطارها .

ولا نرانا في حاجة الى انتظار عصر المطبعة أو عصر التأليف وتداول الكتب بين الأمم لتعليل هـــذا التوارد بين النـــوادر والحكايات في المشرق والمغرب ، وبين القارات الثلاث من العراق الى الأندلس وفرنسا الى افريقية الشرقية . فان انتقال هـذه النوادر على طرق الرحلات والقوافل أسبق جدا من كل تأليف أو طباعة ، وقد كان الرحالون يطوفون البلاد من أقصى العالم الى أقصاه ولا سمر لهم في الرحلة أشهى ولا أدل على حنكة السائح وطول عهده بالترداد على البلاد من أحاديث الحكمة والفكاهـة وأطوار الناس وغرائب الأقطار .

خذها شرودا في البلاد مقيمة   سمرا لذي سمر وزاد مسافر

فاذا سمعت القصة في بغداد لم يكن بعيدا عليها أن تسمع في بلاد الشمال من أوربا أو بلاد الجنوب من أفريقية مع قوافل الرحالين والسياح الذين يسمرون بها في سهراتهم ويتنافسون عليها بين المأثور عن أقوامهم وأوطانهـــم ، وليس العجيب أن تسري هذه النوادر هذا السريان المستفيض بين مرامي السياحة ومطارح السفر ، بل العجيب أن يكون للرحالين والسياح حديث غيرها في لياليهم الطوال كلما فرغوا من احاديث العمل وما اليه.

ولا ينتظر منا بعد هذه الفوضى الجحوية أن نبتّ في نسبة النوادر كلها أو بعضها الى صاحبها ، لأن صاحبها غير واحد ، ولأن أصحابها المتعددين ضروب من الخلق تصلح النوادر لأحدها كما تصلح للآخر ، ولكننا نستطيع أن نقسمها على ثقـــة الى أقسامها الواضحة من حيث الدلالة أو من حيث « الدور » الذي تؤديه ، ومنها ما يمثل الذكاء والحكمة ، وما يمثـــل البلاهـــة والحماقة ، وما يمثل التباله والتحامق أو التغابي ، ولا يقـــع اللبس كثيرا بين هذه الأقسام أو بين هذه الأدوار .

وسنختار فيما يلي عشرين نادرة في كل قسم من هـــذه الأدوار ، ثم نتبعها ببعض القرائن التي تساعدنا على نسبتهـــا الى أقوامها مع التحفظ والتوسع في هذه النسبة الجزافيـــة ، وأما النسبة الى الاحاد من أصحاب اسم « جحا » أو غير أصحابه فنعرض لقرائنها الممكنة بعد ذلك على قدر المستطاع .

٦٠ نادرة

نوادر الذكاء والحكمة

١ ـ آل خبره

كان جحا يتولى القضاء ، فجاءه رجل يستغيث به لانه وجد طنبوره المسروق ، مع بائع في السوق ، وأراد أن يأخذه منه فادعاه السارق لنفسه وأنكره ، فأرسل جحا في طلب البائع المتهم ، وسأل صاحب الطنبور عن شهوده ، فجاءه بشاهدين ، أحدهما صاحب حانة ، والاخر ماجن متبطل بغير عمل ..

وشهد الشاهدان بأنهما يعرفان الطنبور ويعرفان أنه للمدعي ، وعلامته أن فيه كسرا بأعلاه ورباطا بأسفله ، وليست مفاتيحه محكمة الشد والحركة ..

وطابقت العلامة وصف الطنبور ، ولكن السارق طلب تزكية الشاهدين وقال ان شهادة الخمار والماجن لا تقبل في الشريعة ..

قال جحا : « نعم . واما حين تكون الدعوى على طنبور فالخمار والماجن أصلح الشهود » !

٢ ـ من راقب الناس

كان لجحا ولد يعصيه كلما أمـره بعمـل ، ويقول لأبيه : « وماذا يقول الناس عنا ان عملناه ؟ » ..

وأراد جحا أن يلقنه درسا ينفعه ، ويعلمه ان رضى الناس غاية لا تدرك . فركب حماره وأمر ابنه أن يتبعه ، ولم يمض غير خطوات حتى مر ببعض النسوة فشتمنه وقلن له : « أيهـا الرجل ! اما في قلبك رحمة ؟ تركب أنت وتدع الصبي الضعيف يعدو وراءك » ؟

فنزل جحا عن الحمار ، وأمر ابنه بركوبه ، ومضى مسافة غير بعيدة ، ثم مـر بجماعـة مـن الشيوخ يستشرقون ، فدق أحدهم كفا بكف ، ولفتهم الى هذا الرجل الاحمق ، وهو يقول ويعيد : « لمثل هذا فسد الأبناء ، وتعلموا عقوق الآباء ... أيها الرجل ! تمشي وأنت شيخ ، وتدع الدابة لهذا الولد ، وتطمع بعد ذلك ان تعلمه الأدب والحياء » ؟

قال جحا لولده : « أسمعت ؟ تعال اذن نركب الحمار معا»..

وما هي الا لحظة ، حتى مر بهمـا جماعـة مـن اصدقـاء الحيوان صاحوا بهما : « اما تتقيان الله في هذا الحيوان الهزيل ؟ أتركبانه معا ، وكل منكما يزن من اللحم والشحم ما يزيد على وزن الحمار » ؟

قال جحا لولده : « الآن نمشي معا ونرسل الحمار أمامنا ، لنأمن سوء القالة من النساء والشيوخ وأصدقاء الحيوان »

وما هي الا لحظة أخرى حتى مر بهمـا طائفـة من « أولاد البلد » الخبثاء ، فجعلوا يعبثون بهما ويقولون لهما : « والله ما يحق لهذا الحمار الا أن يركبكما أو تحملاه وتريحاه من وعثـاء الطريـق » !

فمال جحا الى شجرة ، وأخذ منها فرعا متينا وربط فيـه الحمار ، وحمل الفرع من طرف ووضع الطرف الآخر على كتف ولده . فاذا البلد كله وراء هذا الركب العجيب ، واذا بالشرطي يفض هذا الزحام ليسوقهما الى البيمارستان ..

قال جحا لابنه في طريقهما مع الشرطي : « هذه يا بني عاقبة من يستمع الى القال والقيل ، ولا يعمل عملا الا ابتغى به مرضاة الناس » !

٣ ـ احصاء المنافقين والرقعاء

كان جحا دائم الشكوى من أهل بلده ، يقول لكل من لقيـه منهم أو من الغرباء عنهم انهم كلهم منافقون رقعاء .

ولامه هذا وراجعه ذاك، فعمد الى اقناع اللائمين والمناقضين بأسلوبه في الاقناع : أسلوب المشاهدة والعيان ، فخلع باب الدار وحمله على ظهره وقال لأول مناقض له في تشهيره بأهل البلـد : « تعال معي واحسب » !

وعند منعطف الطريق صاح به صائح من أهل البلد وهـو يضحك : « ما هذا الذي تحمله على ظهرك يا جحا » ؟

قال جحا لصاحبه : « هذا واحد : أتـراه لا يعـرف البـاب الطويل العريض الذي يسأل عنه » ؟

٤ ـ العصا تحمل الارجل

حمل جحا أوزة مشوية الى الأمير ، وغلبه الجوع ورائحـة الشواء في الطريق ، فأكل احدى رجليها .

ثم وضعها بين يدي الأمير ، فسأله عن الرجل الناقصة أين ذهبـت ؟

قال : « لم تذهب الى مكان ، وانما الأوز كله برجل واحدة في هذا البلد » ، ثم تقدم بالأمير الى نافذة القصر وأشار الـى سرب من الآوز قائم على قدم واحدة كعادتـه في وقت الراحـة ، فدعا الأمير بجندي من حرسه وأمره أن يشد على سرب الآوز بعصاه ، وما كاد يفعل حتى أسرع الآوز يعدو هنا وهنـاك على قدميـه .

قال الأمير : « أرأيت ؟ ان أوز هذا البلد أيضا خلق بقدمين ولم يخلق بقدم واحدة » !

قال جحا : « مهلا أيها الأمير ... لو شد أحد عـلى انسان بهذه العصا لجرى على أربع » !

٥ ـ تماطل الله وتستدين

جلس جحا يبيع زيتونه فساومته امرأة ، واستكثرت على

الزيتون الثمن الذي طلبه ، وقالت له : « اذا أردت أن تبيعني بالثمن الذي أخبرتك به مؤجلا ، فأنت تعرف زوجي وهو فلان بن فلان » !

وناولها جحا زيتونة ، لتذوقها وتعرف جودة الصنف وحقه من الثمن ، فاعتذرت بأنها صائمة لأنها مرضت من سنة وافطرت في شهر رمضان !

قال جحا : « الآن بطل الخلاف ، لا مساومة ولا تأجيل .. أتراك تماطلين الله سنة ولا تماطلينني الى يوم القيامة » ؟

٦ ـ تيمور في الآخرة

وسأله تيمورلنك الطاغية المشهور : « أين ترى يكون مثواي في الآخرة يا خوجة نصر الدين ؟ »

فقال جحا ولم يتردد : « وأين ترضى أن تكون ، ان لم تكن مع جنكيزخان والاسكندر وفرعون والنمرود » ؟

٧ ـ ثمن طاغية

وسأله تيمورلنك ، وقد أخذه معه الى الحمام ، وخلع ملابسه الا مئزرا يديره على وسطه : « بكم تشترينى الآن ، لو عرضت عليك في السوق يا خوجة نصر الدين » ؟

قال : « بخمسين دينارا » .

قال تيمور : « ويحك ! ان ثمن هذا المئزر خمسون دينارا »

قال جحا : « وهذا هو الثمن الذي حسبته » !

٨ ـ الحساب المهضوم

وأراد تيمور أن يصادر أموال الحاكم بمدينة « آق شهر » فاتهمه باختلاس أموال الديوان ، وأبرأ الحاكم بذمته بالحساب المكتوب على دفاتر الديوان الغلاظ ... فأخذها تيمور من يده ومزقها وأمره بابتلاعها ، ثم أحال حكم المدينة الى الخوجة نصر الديـــن .

وحان موعد الحساب فجاءه الخوجة نصر الدين بجلود مطوية نشرها فوجد في طيها رقائق من الخبز مكتوبا عليهــا الحســاب بالحلوى .

قال تيمور : « ما هذا » ؟

قال الخوجة : « هذا الذي يحتمله جوفي يا سيدي ، لأنني شيخ فانٍ ولست فتى ضليعا كحاكمك القديم » .

٩ ـ أيهما أحب اليه

وكانت له زوجتان ، فجلس معهما يتسامر ، وطاب لهما أن تحرجاه ، فسألتاه : أيهما أحب اليه .

قال : « أنتما معا حبيبتان الى قلبي » !

قالتا : « لا ، انك لا تستطيع أن تضحك منا بهذه المراوغة،

وأمامك هذه البركة نخيرك في اغراق احدانا بها ، فمن منا تلقي بها في الماء الآن ؟ » ..

وحار في أمره هنيهة ، ثم التفت الى الزوجة الأولى وقال لها : « أذكر أنك تعلمت السباحة قديما يا عزيزتي » !

١٠ ـ المكان الامين في الجنازة

وسئل : « أيهما أفضل ؟ المسير خلف الجنازة ، أو المسير أمامها ؟ »

قال : « لا تكن في النعش ، وسر حيث تشاء » .

١١ ـ القبلة الامينة

وسئل : « وماذا يستقبل السابح اذا نزل في الماء » ؟

فقال : « يستقبل المكان الذي عليه ملابسه » .

١٢ ـ الفضول

ولقيه بعض معارفه في الطريق فقال له : « اني رأيت الساعة رسولا يحمل مائدة حافلة بالطعام الفاخر » .

قال جحا : « وماذا يعنيني ؟ » .

قال صاحبه : « انهم يحملونه الى بيتك » .

قال : « وماذا يعنيك » ؟

١٣ ـ التقوي المهلكـة

وسكن في دار ، فشكـا الى صاحبها انـه يسمع قرقعـة في سقفها .

قال صاحب الدار : « لا تخف . انه يسبح الله »

قال : « وهذا الذي أخشاه ، تدركه رقة فيسجد علينا » !

١٤ ـ حدود الابوة

وسئل جحا : « هل يولد للرجل بعد بلوغ الستين ؟ »

قال : « يجوز » !

قيل : « وبعد بلوغ الثمانين » ؟

قال : « يجوز » !

قيل : « وبعد بلوغ المائة » ؟

قال : « نعم .. اذا كان له جار في العشرين » !

١٥ ـ العمامة القارئة

وعرض عليه رجل كتابا بالفارسية ليقرأه له فتعلل برداءة الخط ، ورد له الكتاب ..

قال صاحب الكتاب محنقا : « وعلام اذن تضع هذه العمامة على رأسك كأنها الرحى ؟ »

فخلع الشيخ العمامة ، ووضعها جانبا ، وقال له : « دونك

العمامة فاسألها ، فانها صاحبة العلم الذي تبغيه » !

١٦ ـ تحويل الجزاء

وصفع رجل « جحا » على قفـاه بعرض الطريق يريـد أن يسخر منه :

فأخذ جحا بتلابيبه الى القاضي ولـم يقبـل منـه اعتذاره بالخطأ فيه ، لأنه ظنه من أصدقائه الذين يمازحونه بمثل هـذا المزاح الثقيل .

وكان الرجل العابث من معارف القاضي فأحب أن ينجيـه من العقاب ، وحكم لجحا بأن يصفعه كما صفعه أو يتقبل منـه عشرة دراهم على سبيل الجزاء أو التعويض .

وطمع جحا في الدراهم فسأل القاضي المدعى عليه : « أمعك الدراهم » ؟

وفطن صاحبنا لغرض القاضي فقـال : « كـلا ، ولكننـي احضرها بعد قليل من البيت » .

واذن له القاضي بالانصراف لاحضار الدراهم ، فذهب ولم يعد . وطال الانتظار على جحا ، فأدرك حيلة القاضي واقترب منه كأنه يهمس في أذنه ، ثم صفعه صفعة عنيفة ، وقـال له وهو ينصرف : « اذا عاد اليك الرجل بالدراهم ، فخذها حوالـة منـي اليـك » !

١٧ ـ دعوى بدليلها

وادعى الولاية ، فسأله السامعون عن كرامتــه ، فقــال : « أتريدون مني كرامة أعظم من علمي بما في قلوبكم جميعا » ؟

قالوا : « وما في قلوبنا » ؟

قال : « كلكم تقولون في قلوبكم انني كذاب » !

١٨ ـ من يلد يمت

واستعار حلة كبيرة من جاره ، ثم أعادها اليه وفيها حلــة صغيرة . فسأله جاره : « وما هذه ؟ » قال : « هذه بنتها ، ولدتها عندنا . » فتبقلها جاره ولم ينكر عليه .

ثم استعارها مرة أخرى ولم يردها ، فلما سأله عنهـــا ، قال : « البقية في حياتك ، انها ماتت عندنا في النفاس .. رحمها الله . »

قال صاحب الحلة متعجبا : « أيموت النحاس ؟ »

قال جحا : « من يلد يموت ، وقد يموت في النفاس . »

١٩ ـ ثمن الضرورة

وعطش في طريقه ، وهو بمنقطع من المــاء في الصحراء ، فمر به اعرابي يحمل قربة ، عرض عليه جحا أن يبيعها اياه فلم يقبل بأقل من خمسة دراهم ، فاشتراها جحا ، وجلس يأكل من طعام دسم كان معه ، واستضاف الاعرابي فأعطاه من الطعام ما

أشبعه وأظمأه ، فسأله شربة من القربة ... فلم يقبل بأقل من خمسة دراهم .. وباع الشربة بثمن القربة !

٢٠ ــ ثمن الحمار !

وضاع حماره ، فأقسم ليبيعنه ان وجده بدينار واحد .

ثم وجده وندم على حلفه ، ولم يشأ أن يحنث في قسمه ، فاحتال عليه ليبر باليمين ، ويحفظ على نفسه ثمن الحمار ، وعرض الحمار في السوق وقد ربط الى عنقه حذاء قديما ، فجعل ينادي عليه : « الحمار بدينار والحذاء بعشرة دنانير ، ولا يباعان على انفراد » !

٢١ ــ الكرام قليل

أمره الوالي أن يعد مجانين البلد ، فقال : « بل اعد لك العقلاء . ومن عداهم كثيرون لا يحصرون »

٢٢ ــ يقضي على القاضي

جاء الشرطي برجلين آلى مجلس القضاء ، وجحا عند القاضي يحدثه في بعض شئونه ، فعرض الشرطي قضية الرجلين ، وقال انه وجد في الطريق بين بيتيهما أقذارا ممنوعة وادعى كل منهما أن جاره مطالب بازالتها ، لأنه هو الذي وضعها في عرض الطريق .

وأراد القاضي أن يعبث بجحا ليسخر منه ، ويفضح دعواه،

لانه كان يدّعي العلم ويتصدى للافتاء ، فأحال عليه القضية ، وسأله أن يقضي فيها بالحق بين الرجلين .

فقبل جحا مقترح القاضي ، وسأل الشرطي : « هل كانت الأقذار أقرب الى دار هذا أو دار ذاك » ؟

قال الشرطي : « انها كانت في الوسط بينهما » .

قال جحا : « انما يزيلها اذن مولانا القاضي ، لأنها في الطريق العام ، ومولانا القاضي هو المسئول عن المدينة » !

نوادر الحماقة والبلاهة

١ ـ على قدر الوضوء

توضأ جحا ، ولم يكفه الماء لاتمام وضوئه ، وبقيت رجله اليسرى بغير وضوء ، فقام يصلي برجله اليمنى ولا يضع اليسرى على الأرض .

فسألوه : « ما بالك تقف على رجل واحدة ؟ »

قال : « الأخرى غير متوضئة » !

٢ ـ أنا مكرر

رأى رجلا في الطريق لا يعرفه ، فتبسط معه في الحديث ، ورفع الكلفة بعد عبارة أو عبارتين ..

فعجب الرجل وسأله : « ألك بي معرفة فترفع الكلفة هكذا بيني وبينك ؟ » ..

قال : « بل حسبتك أنا .. لأن ثيابك كثيابي ومشيتك كمشيتي ، ولكنك لست أنا كما علمت الآن » !

٣ ـ ترويج زوجة

وحاول أن يبيع بقــرة له فأعيــاه بيعهــا ، فـرآه دلال في السوق ، تكفل له ببيعها اذا أسلمه اياها وأعطاه الجعل المعلوم، وقبل جحا ، فأخذ الدلال ينادي على البقرة ، ويذكر منافعهـــا ومحاسنها ، ومنها أنها حبلى في ستة أشهر ..

ثم جــاء الخواطب الى داره يخطبون بنتــه ويتطلعون الــى محاسنها ، فتذكر الصفة التي روجت سوق البقرة ، وقـــال للخواطب :

« هي كما ترون وزيادة .. انها حبلى في شهرها السادس . »

٤ ـ يريح كما يراح

ورأوه يركب حمارا ويحمل خرجه على كتفه ، فضحكوا منه ورموه بالعبث والدعابة ، وقال له قائل منهم : « ألا تعرف كيف تضع الخرج تحتك أو أمامك ولا ترهق نفسك بحمله وأنــت راكب ؟ »

قال : « عدل من الله ، أراضي الحمار من حمل نفسي بــأن أريحه من حمل خرجي » !

٥ ـ أكبر خوخة

وكان في منديله فاكهة ؛ فسأله بعضهم : « ما هذا الذي في منديلك يا جحا ؟ »

قال : « لا أقول لكم ، ولكني أعطيكم أكبر خوخة اذا عرفتموه » .

قال السائل : « انه خوخ » !

فانطلق قائلا : « أي ملعون انبأكم بأمره وهو مصرور » !

٦ ـ أحجية محلولة

ورأى بعضهم أن يمتحنه فقال له : « ان عرفت ما في منديلي أعطيتك واحدة منه تكفي لعمل عجة مليحة » .

قال : « صفه لي ولا تذكر اسمه » .

قال صاحبه : « انه أبيض وفي وسطه صفار » .

قال جحا : « الآن عرفته . انه لفت حشوتموه جزرا » !

٧ ـ الحمد لله

وضاع حماره فطفق يصيح وهو يسأل الناس عنه : « ضاع الحمار والحمد لله » .

قيل له : « فهل تحمد الله على ضياعه ؟ »

قال : « نعم ، لو انني كنت اركبه لضعت معه ولم أجد نفسي » .

٨ ـ أربعون يوما من رمضان

وكان من عادته اذا صام يوما في رمضان ان يلقي بحصاة في

جرة ، ورأته ابنته فألقت في الجرة ملء كفيها من الحصى ، وهي تظن أنها تساعده .

وسأله الجيران يوما : « كم بقي من رمضان ؟ »

قال : « أما ما بقي فلا أعرفه ، ولكني عليم بما مضى من أيامه » .

ثم عد الحصى ، فزاد على مائة وعشرين حصاة .

قال بينه وبين نفسه : « لو أنبأتهم بهذا العدد لسخروا مني ، ولكني أنزل به الى أربعين » .

ثم خرج لهم يقول : « مضى من الشهر أربعون يوما على التقريب » .

فتضاحكوا منه ، وتضاحك هو منهم وهو يقول : « انه شهر طويل على الصائمين . فماذا تصنعون لو أنبأتكم بالعدد الصحيح ؟ »

٩ ــ الشمس والقمر

وسألوه : « أيهما أنفع : الشمس أو القمر ؟ »

فلم يتمهل واجابهم بيقين : « انه القمر ولا مراء . »

فسألوه : « ولم ؟ » .

قال : « لأن الشمس تطلع في النهار حين يستغني عنها الناس ، واما القمر فلا يطلع الا في الظلام على حين الحاجة اليه »

١٠ ـ البحث في النور

ورأوه يبحث في أرض لا شيء فيها ، فسألوه : « عم تبحث ؟ »

قال : « خاتم سقط مني » .
قالوا : « وهل سقط هنا وليس في الأرض أثر للخواتم ؟ »
قال : « بل سقط في الزقاق الذي هناك » .
قالوا : « وما بالك لا تبحث عنه حيث سقط ؟ »
قال : « وأي جدوى للبحث في الظلام ؟ »

١١ ـ حمار ممسوخ

اشترى حمارا ، واقتاده بزمام طويل ، فتغفله لصان ، ذهب أحدهما بالحمار ، وربط الآخر نفسه في مكانه .

والتفت جحا فرأى انسانا في مكان الحمار .
فاستعاذ بالله ، وسأله « أين الحمار ؟ » .
قال : « انا الحمار ، أعادني الله انسانا ببركتك كما كنت بعد أن مُسخت حمارا لدعاء والدتي علي » .

فبارك له جحا ، وأطلقه وهو يوصيه بطاعة أمه ويحذره العودة الى اغضابها ، وجر الغضب من الله عليه بدعائها .

ثم عاد الى السوق بعد برهة ليشتري حمارا غير ذلك الانسان الممسوخ فرأى الحمار بعينه في يد الدلال ، فمال على أذنه وهمس فيها قائلا : « لن تنفعك بركتي بعد مسختين ، ولن أشتريك وأنت بهذا العصيان » !

١٢ ـ نصف بنصف وتتم الدار

وكان يشارك على دار ، فباع نصفها الذي يملكه ليشتري بثمنه النصف الاخر ، وتخلص له الدار بغير شريك !

١٣ ـ دابة على رمح

ونام في الخلاء ومعه عكاز طويل ركزه ووضع صرة النقود على رأسه لكيلا ينالها أحد .

فرآه لص وعرف غفلته ، فأخذ النقود ووضع في موضعها روث دابة .

وتيقظ جحا ، فوجد الروث في مكان الصرة ، فلم يعجب لسرقة النقود ولكنه عجب للدابة التي استطاعت أن تصعد على عكاز لتصنع به ذلك الصنيع ..

١٤ ـ مكافاة معقولة

وحمل الى تيمور رمانات باكورة ظهرت في غير أوانها ، فرضي عنه تيمور وأرضاه ..

ثم طمع في جائزة أخرى ، فجمع رؤوساً من اللفت ليهديها اليه ، فقال له بعض جيرانه ان اللفت لا يصلح لاهداء الملوك ، فاذهب اليه بنخبة من التين فهو ألطف وأحلى .

واستكبر تيمور أن يهدى اليه التين وهو يملأ الاسواق ، وأحب أن يكف جحا عن طمعه ، فأمر الجند أن يقذفوه بالتين واحدة بعد واحدة .

فوقف جحا يتلقى الضربات على رأسه وعلى وجهه وعلـى عينيه وأنفه وهو يضحك ويدعو للجـار الـذي أسدى اليـه النصيحة الصادقة .

واشتد عجب تيمور من ضحكه ودعائه ، فأمر الجنـد أن يمسكوا عن ضربه ، ليسأله عن سر ذلك الضحك وذلك الدعاء .

قال : « انه سر عظيم ، لو كان اللفت في موضع هذا التين ، لتهشم رأسي وانفقأت عيناي » !

١٥ ـ بروج نامية

وسألوه : « ما طالع نجمك ؟ » .

قال : « ولدت والشمس في برج التيس » .

قالوا : « لا يوجد في السماء بـرج يسمى بـــرج التيس ، ولكنك تعني برج الجدي » ..

قال : « أفمن مولدي الى اليوم لا يصبح الجدي تيسا ؟ » .

١٦ ـ كيف يعرف يمينه ؟

وانطفأت شمعة في داره فطلبت منه زوجته أن يناولها اياها من يمينــه .

قال : « يا حمقاء ! وكيف أعرف يميني من شمالي في هذا الظـلام ؟ » .

١٧ ـ أدب مع التلاميذ

وركب بغلته مستدبرا رأسها فسأله تلاميذه : « لمـاذا لا

تعتدل في ركوبك يا مولانا ؟ »

قال : « هذا هو الاعتدال ، أدير ظهري لرأس البغلة ولا أديره لرؤوس الآدميين ! » .

١٨ ـ يسمع صوته من بعيد

ورأوه يوما وهو يغني ويجري ، فسألوه : « ما بالك تغني وتجري ؟ » .

قال : « أحب أن أسمع صوتي من بعيد ! » .

١٩ ـ لماذا ينتشرون ؟

سألوه : « لماذا ينتشر الناس في جوانب الارض ، ولماذا يذهبون ذات اليمين وذات اليسار كل صباح ؟ » .

فتأمل قليلا ثم قال : « لو ذهبوا الى ناحية واحدة ، لمالت بهم الارض وانكفأت بهم في هاوية ليس لها قرار ! » .

٢٠ ـ لماذا لا تاكله ؟

ومر بفرن تتصاعد منه رائحة الخبز الساخن ، وهو يشتهيه ، ولا يقدر عليه لخلو يده ، فاتجه الى الفران وسأله : « ألك كل هذه الرغفان ؟ » . قال : « نعم » قال : « ولماذا لاتأكلها يا أحمق ؟ » .

نوادر التحامق والتباله

وهذه نوادر منسوبة الى جحا تتوسط بين الحكمة البينة والحماقة البينة ، لا نقتصر في اختبارها على النوادر التي يصطنع فيها الحماقة ويتكلفها كأنه يمثلها ويستعيرها ، ولكننا نختار من هذه النوادر كما نختار من النوادر التي لا تحسب بطبيعتها من الحكمة ولا تحسب من الحماقة ولكنها تتوسط بينهما وتغلب عليها هذه مرة وتلك مرة أخرى ، وكلها قد نسبت الى جحا كما نسبت بموضوعها أو بمغزاها الى ذوي السمعة الفكاهية من أمثاله .

١ ـ أحمق وأحمقان

رآه الطحان يأخذ من قفف الناس ويضع في قفته ، فصاح به : « ما هذا يا جحا ؟ » .

قال جحا : « لا تؤاخذني فانني رجل أحمق » .

قال الطحان : « لو كنت أحمق لأخذت من قفتك ووضعت في قفف الناس » !

قال : « ويحك ! أنا أحمق واحد ، ولو صنعت كما تقول لكنت أحمقين » ! .

٢ ـ ما لا يغتفر

ولقيه بعضهم يلهو فقال له : « أنت هنا تلهو وأمرأتاك احداهما الاخرى ؟ » .

ولم يشأ أن يدع مجلسه فسأل الرجل متضاحكا : « أقالت احداهما للاخرى شيئا يتعلق بالعمر ؟ »

قال : « كلا » .

قال : « اذن لا داعي للوساطة ، فانها مشكلة سليمة » !

٣ ـ مرق مرق المرق

جاءه ضيف ريفي ومعه أرنب فأكرمه وشيعه كما استقبله بالحفاوة والتحية ..

ثم مضى أسبوع وجاءه ضيف من بلدة صاحب الأرنب وقال له انه جاره القريب .

ثم مضى أسبوع أو أسبوعان وجاءه من تلك البلدة جيران كثيرون يزعمون جميعا أنهم جيران الرجل في داره أو حقله أو دار أحد من أهله .

فأجلسهم جميعا على السماط وجاءهم بطست كبير فيه ماء غال ، وأومأ اليهم قائلا : « تفضلوا فكلوا من مرق الأرنب ، يا جيران جيران صاحب الأرنب المشئوم » !

٤ ـ بلبل ولا كالبلابل

وصعد على شجرة يقطف من ثمرها فحضر صاحب البستان

وفاجاه وهو على تلك الحال .

قال صاحب البستان : « من أنت يا هذا ؟ » .
قال جحا : « أنا بلبل أتنقل على الأغصان » .

قال صاحب البستان : « أسمعنا اذن من غنائك أيها البلبل العجيـب » .

فتغنى جحا بصوت لا يسمع ولا يشبه تغريد البلبل ، وقال صاحب البستان : «ما هذا بتغريد بلابل » .

قال جحا : « هاتها واسمعها ، ألم تقل انني بلبل عجيب ؟ »

٥ ـ مصيبة أكبر من مصيبة

ونظر تيمور الى وجهه في المرآة بعد أن تنعم وتعوّد معيشة القصور فانقبض لمنظره القبيح ، ولمح وزيره انقباضه فأخـذ يواسيه على عادة الوزراء بما يسري عنه ، وقال له فيما قـال : « مثلك أيها الخاقان الأعظم لا يأسى على جمال الوجود وقد أعطاك الله بسطة في الجسم وبسطـة في القـوة وبسطـة في الثـروة والسلطان ، وانما يأسى عـلى جمـال الوجـوه النساء وأشباه النساء من الرجال » .

فانبسطت أسارير الطاغية ، وابتسم راضيا عما قالـه الوزير ، ولكنـه التفت الى الخوجـة نصر الديـن فرآه يبكـي ويستخرط في البكاء ..

قال له : ما خطبك يا خوجـة نصر الدين ؟ أنـا صاحـب المصيبة تسليت ، وأنت تأبى أن تتسلى ؟ » .

قال جحا : « معذرة يا مولاي ، ان مصيبتي أكبر من مصيبتك اضعافا مضاعفة . أنت نظرت الى وجهك مرة فانقبضت فماذا أصنع أنا الذي أنظر اليك بالليل والنهار مرات ؟ » .

٦ ـ نقل

دخل لص منزله وحمل بعض أثاثه ، فحمل هو بقية الاثاث حتى دخل وراء اللص الى داره .

ونظر اللص وراءه فرآه يدخل الدار ، فسأله : « من أنت يا هذا ؟ » .

قال : « أنا صاحب الدار التي نقلتنا اليها ! »

٧ ـ كلهم محقون

اختصم رجلان من أصدقائه وجاءه أحدهما يعرض عليه شكواه ، فقال له : « انك محق في شكواك أيها الصديق » .

وجاءه الصديق الثاني في اليوم التالي فعرض عليه شكواه فقال له كما قال لخصمه : « انت محق أيها الصديق » .

وكانت امرأته تسمع القصتين فسخرت منه قائلة :

« يا لك من منافق ، خصمان مختلفان ، وكلاهما محق في شكواه !؟ » .

قال : « ولماذا تغضبين ؟ أنت محقة أيضا فيما تقولين ؟ » .

٨ ـ تنقلب الدنيا

وأراد أن يتزوج ، فبنى دارا تتسع له ولأهله ، وطلب من النجار أن يجعل خشب السقوف عـلى أرض الحجرات ، ويجعـل خشب الأرض على السقوف ، فراجعه النجار دهشا ، ولم يفهم ما يعنيه .

قال جحا : « أما علمت يا هذا أن المرأة اذا دخلت مكانـا جعلت عاليه سافله ؟ اقلب هذا المكان الآن يعتدل بعد الزواج » !

٩ ـ خروف على عيبه

وأرسله أبوه يشتري له رأس خروف مشوي بأقل مـن ثمنه ، فأكل في الطريق لسانه ، ثم راودته نفسه فأكل عينيه ، ثم أكل أذنيه ، ثم أكل شواته (جلدة رأسه) ومخه ، وذهب الى ابيه ومعه جمجمة نخرة .

فجعل أبوه يقلبها ويسأل : « أين مخه » ؟

فيقول جحا : « كان مجنونا بغير عقل »

فيسأله : « وأين عيناه » ؟

فيقول جحا : « كان أعمى » .

ويسأله : « وأين شواته » ؟

فيقول جحا : « كان أقرع » .

ويسأله : « أين لسانه » ؟

فيقول : « كان أخرس اعجم »

قال أبوه : « فاذهب رده الى صاحبه »

قال : « انما اشتريته بقليل الثمن عـلى البراءة من كل عيب » .

١٠ ـ العقاب قبل الذنب

وناول بنته الصغيرة جرة تملأها ، وحذرها أن تكسرها ، وأنذرها لئن كسرتها ليصفعنها هكـذا ، وأردف الانذار عـلى الاثر بصفعة قوية أبكتها ..

فنظر اليه عابر طريق ولامه عـلى ضرب البنت الصغيرة في غير جريرة ، وقال له : « اتضربها قبل ان تكسرها » ؟

قال : « يا أحمق . انما اضربها لتعرف ألم العقاب فتحذره، وأما بعد كسر الجرة فما الفائدة من ضربها ؟ » .

١١ ـ العائل الاكبر

سأله الأمير : « كم عيالك » ؟

قال : « سبعة » !

فأعطاه لكل من عياله مائة درهم ، وخرج جحا ، ثم عاد اليه على الأثر وهو يقول : « نسيت واحدا أيها الأمير أنفق من مالي عليه كما أنفق على هؤلاء » .

قال الأمير : « ومن يكون يا ترى » ؟

قال : « أنا اكبر عيالي أيها الأمير . »

١٢ ـ ياكلون بالضرب

وذهب الى قونية ، فاعترضه في طريقه دكان حلوى تعرض فيه أصناف الفطائر والفاكهة المسكرة صابحة شهية فاهـوى

عليها يأكل منها بلا استئذان ، وأهوى صاحب الدكان بالعصا يريد أن يحول بينه وبين حلواه ، فتغابى جحا وراح يثني عليه ويثني على أهل قونية ، لم يزل يقول : « يا لكم يا أهل قونية من قوم كرام ، تطعمون الناس بالعصا والكرباج » !

١٣ ـ ماذا يفعل الحذاء ؟

ولبس حذاء جديدا ، فنظر اليه بعض الشطار وأرادوا أن يحتالوا عليه ليسرقوه ، فسألوه : « أتستطيع أن تصعد على هذه الشجرة وتأتي بشيء من ثمرها » ؟

قال : « نعم ، فكم جعلتم » ؟

فأعطوه ما تيسر لهم وانتظروا أن يخلع حذاءه ليصعد ، فلم يفعل ، بل صعد على الشجرة ومعه حذاؤه تحت ابطه .

قالوا : « وماذا تصنع بالحذاء على الشجرة » !

قال : « اذا ألقيت اليكم الثمر فماذا يعنيكم من الحذاء ؟ . أما أنا فلعلي أجد لي طريق سفر من أعلى الشجرة فأذهب ولا أعود اليكم » ..

١٤ ـ لولاك يا كمي

وذهب الى وليمة بثياب العمل ، فطرده الخدم من الباب فعاد اليهم بثيابه المدخرة ، وعليه حلة من الحلل التي يخلعها عليه الأمراء ، فأكرموه وتقدموه الى مكان المائدة ، فغمس كمه في الصحاف واحدة بعد واحدة ، وطفق يقول له كأنه يناجيه : « كل ، كل يا كمي ، فلولاك ما وصلت الى هذا الطعام » !

١٥ ـ ماذا أضاعت ؟

وقيل له : ان امرأتك أضاعت عقلها ، فأطرق يتأمل ، وقام الى داره يبحث فيها .

قالوا : « ماذا تصنع يا جحا ؟ ..

قال : انكم تقولون انها أضاعت شيئا ، ولن يكون ذلك الشيء عقلها ، فانني لا أعرف لها عقلا تضيعه ! »

١٦ ـ بالدور

وقيل له : ان امرأتك تتردد على البيوت وتطيل المكث فيها .

قال : «غير صحيح، ولو كان صحيحاً لوصلت الى دارنا» ..

١٧ ـ أصدق من الحمار

ورجاه بعض جيرانه أن يعيره حماره ، فاعتذر له بذهابه الى الغيط .

ثم نهق الحمار وهو يكلمه ، فعاتبه الجار قائلا : « أليس هذا حمارك ينهق في الدار ، وأنت تزعم أنه ذهب الى الغيط ؟ »

قال : « سبحان الله ، تكذبني وتصدق الحمار ! »

١٨ ـ يصلح لكل شيء

وسأل امرأته ، وقد جاءها برطل من اللحم : « لماذا يصلح

قالت : « يصلح لكل شيء » !

قال : « فاطبخي عليه اذن كل شيء » !

١٩ ـ قسمة الله

واختاره قوم للقسمة بينهم فسألهم : « أترضون قسمة الله أو قسمة عبيده » ؟

قالوا : « بل قسمة الله » .

فأعطى أحدهم درهمين ، وأعطى الثاني دينارين ، وأعطى الثالث لحافا ، وأعطى الرابع سريرا عليه حشية ، واستبقى سائر التركة بين يديه .

قالوا : « ويلك ! أهذه قسمة الله ؟ »

قال : « انظروا حولكم تفهموا قسمة الله وحكمة الله »

٢٠ ـ منوم موصوف

وطلبت منه امرأته ان يعود اليها في طريقه من المسجد بدواء منوم لطفلهما الذي يؤرقهما بالبكاء والصياح .

فعاد وليس معه غير الكتاب الذي يقرأه .

قالت : « لعلك نسيت الدواء » ؟ ...

قال : « معاذ الله ، هذا هو الدواء ، وقد جربته اليوم في الكبار فناموا جميعا ، فجربيه أنت في الصغار » .

موازين غير محكمة

هذه النوادر الستون التي تقدمت في الفصل السابق تصور لنا أقسام النوادر التي تنسب الى جحا ، وقد تنسب الى غيره ، ومنها ما ينبىء عن حكمة ظاهرة وما ينبىء عن بلاهة مستترة بين الحكمة والبلاهة .

وتندر بينها النادرة التي لم تنسب الى مصادر متعددة من الحكماء والحمقى والمحمّقين ، وبعضها يروى عن اناس في الغرب الحديث كالنادرة التي تروى عن الشجار بين المرأتين ، فـــان الأولى تروى عن نابليون وطبيبه والثانية عن جولد سمث الكاتب الانجليزي المشهور الذي قيل فيه انه أحمق الناس الا حــين يتناول القلم فهو اذن من أحكم الناس ..

قيل ان نابليون سأل طبيبه حين كان مشغولا بأمر ولايــة العهد : « هل يولد للرجل في الستين ؟ وهل يولد له في السبعين ، وهل يولد له في الثمانين » ؟ فكان جواب الطبيب عن ابن الستين نعم ، وعن ابن السبعين ، نعم في الندرة ، وعن ابن الثمانين انه يولد له اذا كان له جار في العشرين ..

وقيل ان امرأة جولدسميث وأخته تشاجرتا وهو غائب عن

المنزل ، فأدركه أحد جيرانه وأنبأه بأمر هذه المشاجرة ، فسأله « هل قالت احداهما للاخرى انت شوهاء » قال الجار : « كلا » . قال : اذن هي مشاجرة مأمونة » .

وقد سبقت الاشارة الى نوادر متشابهة بين الفكاهة المصرية والفكاهـــة في المجر وأوربة الوسطى ، ولا يصعب تعليل ذلك بتوارد الخواطر في الجواب البسيط على سؤال واحد أو سؤالين، وقد يعلل الكثير منه باطلاع الغربيين على النوادر التي ترجمت لهم من العربية في القرون الوسطى وقد يكون المتشابه من تلك النوادر اضافة جديدة في الكتب المطبوعة لم تتداولها ألسنـــة الناس قبل ذلك .

الا أن النوادر التي لا شك في مصدرها الشرقي كثيرة بـــين النوادر المنسوبة الى جحا وأمثاله ، وهي على الجملة نـــوادر الزوجتـــين والقضاة الدينيـــين والضيافات التقليدية ونوادر الصيام والصلاة والفتاوى وما هو من قبيلها ..

فهذه لا شك في مصدرهـــا الشرقي من تخوم الصـــين الى آسيا الصغرى ووادي النيل ، فأين هو معيار النسبة الصحيحة بين كل هؤلاء الأقوام والأمصار والأقطار ؟

في النسبة التاريخية بعض المعايير النافعة على غير حســم ويقين . لأن النادرة قد تقع في القرن الثاني أو الثالث وتصحف بعد ذلك لتوائم القرن الذي نقلت اليه ، وما لم تكن مكتوبـــة في مرجع معروف التاريخ فلا سبيل الى الجزم بنسبتها الى زمـــن من الأزمنة على وجه اليقين .

والمعيار الأخر « تقريبي » كالمعيار التاريخي لا ينتهي بنا الى الحسم ولا يسلم من اللبس والانتباه ، وذلك معيار الخصائص القومية التي نميزها بالظن ونقارب بالظن بينها وبين النوادر التي توائمها ولا توائم غيرها ..

وقد أسلفنا ان طبيعة الفرس تغلب عليها الصوفية والمحاولة الدبلوماسية ، وان طبيعة الترك يغلب عليها تحصيل الحاصل مبالغة في الواقع ، وان طبيعة العرب يغلب عليها الخيال والقياس المنطقي ، وتبالغ بها الفكاهة فتجنح بها الى الوهم والقياس مع الفارق الواحد أو الفوارق الكثيرة .

أفلا يعقل ان العبقرية التي أخرجت لنا القول بتسخير الجسد والأعضاء لحالات الروح تخرج لنا مع الفكاهة ـ والمحاولة الدبلوماسية ـ قصة الاوزة التي يخلق لها الخوف رجلين والرجل الذي يخلق له الخوف أربعا اذا عدا وراءه من يشد عليه بالعصا؟

جائز أو راجح ، وهذا غاية ما هناك ، ومثلها نادرة الولد العاق الذي مسخته دعوة أمه حمارا ثم عاد الى الآدمية ببركة الشيخ .

وكذلك يعقل أن تحصيل الحاصل يخرج لنا في بلاد الترك قصة المرأة التي يقال لزوجها انها تدور في البيوت ، فيأخذ بالواقع ـ المفرط ـ ويقول : لو صح ذلك لدخلت الى بيتنا .

* * *

ومثل هذه القصة قصة الرجل الذي يصطنع التعمية ويعلن أنه يعطي أكبر « خوخة » في المنديل لمن يخبره بما فيه ،

ومثلها قصة الرجل الذي يضربونه لأنه يأكل الحلوى فيحمدهم لأنهم يكرهونه على الأكل بالسوط والعصا ..

كذلك يعقل ان القياس مع الفارق يخرج لنا نادرة الرجل الذي باع نصف الدار ليشتري النصف الآخر وتخلص له الدار بنصفيها . فما كل شراء يجمع للشاري بين النصفين ولكنه قياس مع الفارق لشراء على شراء .

والحماقة التي أدخلت في روع صاحبها ان السحابة علامة صالحة للحفرة التي تحفر تحتها ــ هي بعينها التي ترى على الرمح روثة فلا تفهم منها الا أن الدابة صعدت على الرمح . ثم لا يبقى عليها الا البحث عن طريق الصعود ..

هذه معايير تقريبية لا نأخذ بها ولا نهملها ، لأن اهمالها اهمال لدراسة واسعة من دراسات العصر قابلة للمزيد من التوسع والاحكام .

وقد تعمدنا أن نختار بين النوادر السابقة طائفة من أشهر النوادر بين العامة والخاصة في البلاد العربية ، لأنها اشتهرت حتى أصبحت علماً على جحا دون غيره من جمهرة الناس التي تتناقل النوادر والاحاجي من فم الى فم ولا ترجع الى الكتب والأوراق ، فليس من الجائز أن تسقطها من كتاب يدور فيه الكلام على جحا وما ينسب اليه من النوادر والحماقات . ومعظم نوادر جحا من قبيل هذه النوادر الساذجة في تأليفها وموضع الحكمة فيها ، ولعلها ثلاثة أرباع المجموعة التي بلغت قرابة ستمائة ، وعتها المطبعة التركية كلها الا القليل الذي تناثر من

صدر الاسلام الى أيام الدولة العباسية بين كتب الأدب والفكاهة، وفيها من الأسلوب الأدبي والذوق الفني ما ليس في معظم النوادر الشائعة ، فان هذه النوادر الشائعـة أقرب الى النفاية التـي تتناقلهـا العجائز لتسلية الأطفال ومن هم في مثل مداركهم من السذج والجهلاء ، وموضعها بين المحفوظات الشفويـة التي يسميها الغربيون بالفلولكلور أوقع من موضعها بين كتب الأدب والفكاهة الفنية ..

جحا في الأدب

جحا في الأدب ، أو على الأصح النوادر الجحوية في الادب لأن هذه النوادر على أنواعها موزعة بين زمرة من الحمقى والمحمقين بدأت الكتابة عنهم من القرن الأول للهجرة واشتهر منهم في الأدب العربي رهط يبلغ العشرة ويزيد عليها ، منهم هبنقة الاحمق بأقل العيي وأشعب الطفيلي وبنان الموسوس وأبو العبر المتحذلق ومزبد المديني والحموي الشاعر ، وغيرهم من المحتالين بالحماقة أو التطفيل أو الخلاعة ، وليس فيهم من الخلة الجحوية الا اتساع كلمة الغفلة للاشتقاق بين غافل ومتغفل ومتغافل ، ، على بعد ما بين هذه المشتقات من المعاني والألوان .

وهؤلاء الذين وردت أخبارهم في كتب الأدب أرفع في طبقة « الذوق الفني » من جحا في جملة نوادره وأخباره . فليس فيهم من يسف بأضاحيكه الى الصبيانية أو السذاجة السخيفة كما يلاحظ على الكثير من نوادر جحا التي وصلت الينا مضافا اليها نوادر المجموعة التركية ، وهي محيطة بما وضعه الترك وما وضعه غيرهم من عامة الشعوب الشرقية الاسلامية ، وبعضه مما وضعه غير المسلمين من جيران الترك العثمانيين ـ كالأرمن ـ ونسبوه الى جحاهم المسمى عندهم باسم « ارتين » .

وعلة هذه النقاوة فيما أثبته المؤلفون المتأدبون أنهم أسقطوا البارد الغث من النوادر ، ولم يثبتوا الا ما فيه معنى وله طعم في مذاق الأديب والفنان ، فلا تجد ـ مثلا ـ في تلك النوادر مـــا تحسبه من تأليف الصبيـــان أو أشباه الصبيان مـــن السذج والجهلاء ، وما فيه دليل على الغفلة أو التغافل فهو دليل عليهما بحق في عرف الذكي اللبيـــب ، وليس ممـــا يكثر فيه الخلط ليحسب من الغفلة أو التغافل في عرف الصغار والاغرار .

ولو كانت كل النوادر الجحوية من قبيل نوادر المزبـد أو الحموي لكانت طرازا من هذا الفن لا يعدله طراز في لغة مـــن اللغات ، ولكانت باباً من أبواب الدراسات الصادقـــة للفكاهة الفنية والعوارض النفسية التي يعتمد عليها من يجد في البحث عن شواهد التحليل .

فمن كلام الحمدوني حين لاموه على التحامق : « ان حماقة تعولني خير من عقل أعوله » .

ومن أضاحيك المزبد ، انه هم بتطليق امرأته فذكرته طول الصحبة ، فقال لها : « والله مالك ذنب غيرها » .

ومن أضاحيكه أنه سمع عن صيام يوم بمثابة صوم سنة ، فصامه الى الظهـر وأفطر ، وقـال : « حسبي من الثـواب ستة أشهر ، نحسب منها شهر رمضان » .

ولو اجتمعت ستمائة نادرة من هـذا الطراز لكانـت كمـا أسلفنا ذخيرة لا تعدلها ذخيرة في آداب العالم ، ولكنها لا تجتمـع بطبيعتها ، ولا مناص من اختلاطها بالسخف والهراء كلما تناقلها

العديد الأكبر من عامة الرواة ، وأضافوا اليها مـا يخترعونـه باجتهادهم على حسب مداركهم ، أو ما يستدركون بـه الفـوات والنسيـان ٠

والكتب التي جمعت هذه النوادر المنتقاة تعد من أمهات كتب الأدب الى أيـام الدولـة العباسية ، ثـم يعرض لهـا الاسفاف والابتذال فيما بعد ذلك من جراء الشيوع والذيوع أو من جراء الهزال والاضمحلال في دور المهانة والجمود .

وأشهر هذه الكتب نثر الدرر للآبي والأغاني لأبي الفـرج الاصفهاني والمحاضرات لأبـي القـاسم الراغب الاصفهانـي ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وعيون الاخبار لابن قتيبة وأخبـار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي والعقد الفريد لابـن عبد ربـه وفوات الوفيـات لابـن شاكر وذيـل زهـر الآداب للحصري والمستطرف للابشيهي وثمرات الأوراق لابـن حجـة الحمـوي ، وحلبة الكميت للنواجي . ثم يلي هذه الطبقة كتاب الفاشوش في حكم قره قوش لابن مماتي وكتاب مضحك العبوس لابن سودون المجنون ، ويستطرد الاسفاف بعد ذلـك الى القرن الرابـع عشر للهجرة وفيه ظهرت مجاميع النوادر المنسوبة الى جحا منقولة عن اخلاط الالسن في كل أمة تناقلت هذا الاسم بين الأمم الشرقية .

الادب الجحوي بعد النهضة الشرقية

وقد ازدهر الأدب الجحوي بعد النهضة الشرقيـة الحديثة ، فظهرت المؤلفات عنه على مناهج شتى ، يقتبس بعضها من نوادره للاغراض التعليميـة ، ويستخدم بعضها هـذه « الشخصيـة »

لأغراض النقد الاجتماعي على طريقة جحا في التحامق والحكمة التي تجري على ألسنة المجانين، ويعنى بعضها بالاحصاء التاريخي والاستقصاء في تدوين الروايات والأسانيد ، ويرجع هذا الازدهار في الأدب الجحوي بعد عصر النهضة الحديثة الى العناية باحياء الآثار السلفية كما يرجع الى شيوع النقد الاجتماعي بأسلوب الجد والفكاهة .

ولقد نبهت النهضة الشرقية أناسا من الأجانب المقيمين في الشرق ـ كما نبهت الشرقيين ـ الى استكشاف طبائعه وملامحه وألوان شعوره وتفكيره ، فكان من هذه الألوان البادية هذا اللون من الفكاهة الشعبية التي تدور حول « شخصية جحا » الساذجة ونوادره التي يتداولها الشعب للسخر منها أو للسخر بها ، وقام اثنان بترجمة نوادر جحا الى الفرنسية باسم « كتاب جحا الساذج » هما البرت عداه والبرت جوسيبوفيشي Albert Adeh and A. Josipovici الذي كان من موظفي القصر الملكي وممن حضروا بعض الدروس الاسلامية في الأزهر الشريف ، وكان مولده بالقسطنطينية سنة ١٨٩٢ فكانت له معرفة بالتركية والعربية واطلاع على نوادر جحا في مصادرها المختلفة ، وأما صاحبه البرت عداه فقد ولد بالقاهرة ـ سنة ١٨٩٣ ـ وتعلم في مدارسها وحضر بعض الدراسات الازهرية ، وأمكنه أن يفهم النوادر في لهجتها الشعبية أو لهجتها المعربة الشبيهة بالشعبية .

وقدم الكتاب المترجم الى قراء الفرنسية الأستاذ اوكتاف ميربو Mirbeau بكلمة موجزة كتبها في أثناء الحرب العالمية (٢٥ أكتوبر سنة ١٩١٦) وقال فيها ان المؤلفين لا يشرحان

شيئا لأن الحياة لا تشرح نفسها وما كان « جحا » الا فلذة من الحياة الشرقية تعيش ولا تحتاج حيث تعيش الى تفسير ، لأن النوادر لا تبحث لنا عن غير المألوف أو عن الخوارق والغرائب وانما تعطينا مألوفات الحياة الدارجة بغير بحث ولا انتقاء ، واذا بدا فيها أثر من الغرابة فانما ترجع هذه الغرابة الى اختلاف الجيل مع تشابه الشخصيات وتكرار أمثالها في كل جيل .

وما كاد هذا الكتاب يظهر بالفرنسية حتى ترجم الى اللغات الأوروبية وأقبل عليه المثقفون لأنه معرفة يستزيدونها ،كماأقبل عليه عامة القراء لأنه يروقهم بفكاهته ووقائع الحياة الممثلة فيه، ومن هذه التراجم ترجمة بالانجليزية ظهرت باسم جحا الأحمق Goha the fool أو جحا الغر « البسيط » .

وآخر ما ظهر من الكتب الأوربية عن جحا كتاب مغامرات بخارى الذي ألفه الكاتب الروسي ليونيد سولفييف Leonide Soloviev (سنة ١٩٣٨) وترجمه الى الانجليزية تاتيانا شيبونينا Shebunina في هذه السنة ، واتخذ المؤلف من شخصية جحا في هذا الكتاب داعية جوالا يضطرب في البلاد الاسيوية هربا من ظلم الحكام ، وكراهة للمقام ، ويمضي هنا وهناك ليشهر بالنظم الحكومية التي ترهق الناس بالضرائب وتلتمس لهاأسبابا من الهباء لا تعفي منها المقيم ولا المترجل بين الأرض والسماء ، ومثال هذه المعاذير التي تنتحل لتحصيل الضرائب أن المكاسين استوقفوا جحا على باب مدينة ليسدد الضرائب عمن ينوي أن يزورهم فيها ، فلما قال للمكاسين انه لا يقصدهم للزيارة بل للعمل والتجارة طالبوه بالضريبة ضعفين : احداهما للعمل المربح

والأخرى للزيارة « الضمنية » ... لأن من يتجر مع قوم يزورهم بغير مراء .

ونخال أن القراء الغربيين أقبلوا على نوادر جحا لأنها وافقت عندهم نماذج من الشخصيات المضحكة يألفونها ويتناقلون حكاياتها الصحيحة أو الموضوعة ، وربما كانت نوادر جحا نفسه قد تسربت الى الغرب بالتنقل والرواية الشفوية والاطلاع على الكتب العربية في أصولها أو ترجمتها ، ولا يبعد أن يكون كثير من هذه النوادر قد انتقل من المغرب الى أبناء جزيرة مالطة الذين يتحدثون في لغتهم الممتزجة بالعربية عن شخصية كشخصية جحا تسمى عندهم جهان ، وهو تصحيف يسير كتصحيف كثير من الأسماء العربية التي يتسمي بها أبناء تلك الجزيرة . أما اسم « جوكا» المشهور باللغة الايطالية فلا نخاله من قبيل هذا التصحيف كما خطر لبعضهم ، لأن مادة « جوكا » بمعنى المزاح والضحك شائعة في اللغات الغربية اللاتينية والسكسونية ، ومنها كلمة « الجو كندا » لصورة موناليزا الخالدة بمعنى « المبتسمة » من عمل ليوناردو دافنشي الفنان الكبير .

وقد أشرنا فيما تقدم الى شخصيات في الغرب تشبه شخصية « جحا » في جانب الحكمة تارة وفي جانب الحماقة تارة أخرى ، ولا ننسى في هذه العجالة أبقى هذه الشخصيات لأنها باقية الى يومنا هذا عنوانا لصحيفة سيارة باسم ال « البنش » Punch المختزل من اسم Punchinello من بقايا التمثيل الصامت في العصور الوسطى أو « القره‌قوز » المعروف عندنا بصندوق الدمى والألاعيب .

والتناقض كثير في ردّ هذه الكلمة الى أصلها القديم ، فمن الشائع في الأسانيد الشعبية الايطالية أن الاسم مصحف من اسم مهرج سخيف يسمى بتشيو دانيلو Puccio d'aniello كان معروفا في القرون الوسطى ثم اتخذوا اسمه علما على صناعة التهريج .

ولا سند لهذه الرواية غير الاشاعة والمشابهة في اللفظ مع الاختزال والتصحيف ، والأرجح أن الاسم مصحف من اسم بنشيوس بيلان Pontius Pilate أو بيلاطس الذي حدثت في عهد ولايته محاكمة السيد المسيح • فقد كانت هذه « الشخصية » محور السخرية والاهانة في المسرحية الدينية التي كانت تمثل محاكمة السيد المسيح وتعرض أعداءه في صورة رمزية يقابلها النظارة بالتهكم والاستهزاء . وقد يكون وصف القرهقوز بالسواد كما يسمى باللغة التركية منظورا فيه الى هذه المسرحية « السوداء » أو مأخوذا من الستار الاسود الذي يحجب الدمى والألاعيب ، وهكذا تتنقل الشخصيات والمناظر بين الشعوب ثم تنعزل في كل أمة بخصائصها بعد نسيان وسائل الانتقال .

وأيا كان مصدر هذا « البنش » فهو باق الى اليوم يصغي الناس الى فكاهاته متفرعة متجددة ، متطورة ، كما نقول بمصطلحات زماننا وقلما يعنيهم أن يتتبعوها الى جذرها القديم •

* * *

ومن أطوار الشعوب في تناقل الفنون أو الموضوعات الفنية أن نهضة الشرق نبهت الأوربيين الى تراث الشرقيين القديم ، وان عناية الأوربيين نبهت اليه أناسا من الشرقيين الذين يكتبون

باللغات الأوربية، فوضع الأستاذ عسكر نحاس باللغة الفرنسية كتابا سماه « تأملات ابن جحا » يحكي فيه الابن أباه بالحكمة المازحة والدعابة الحكيمة ، ومن أمثاله قوله عن المرأة « انها خلقت في الرجل الانانية لتحقيق مطالبها » وان « امرأة واحدة تبحث عن سيد ، ولكن أمرأتين معا تبحثان عن فريسة » وان « الرجل الشرير في عين المرأة الخائنة هو السمكة التي ترفض الطعم » و « ان المرأة تعذب رجلها عقابا له على أنها شيء لا غنى عنه لديه » .

وسينشأ لجحا بعد ابنه هذا حفدة وأبناء حفدة ، ولا نظنهم جميعا قالوا ـ بعد ـ كلمتهم الأخيرة باللغة العربية ، أو التركية ، أو بسائر اللغات ، فانهم خالدون بخلود النفس البشرية بين كل قبيل .

خلاصة تاريخيـــة

والخلاصة من الناحية التاريخية ـ وهي أقل النواحي ثبوتا وأهمية في هذا المبحث ـ أننا نستطيع أن نتقبل أبا الغصن جحا كما ذكره الميداني في أمثاله كأنه شخصية تاريخية لا غرابة في وجودها ولا داعية للشك في امكان وقوع النوادر المنسوبة اليها ، فان الذين يشبهون أبا الغصن هذا في غفلته وسهواته يوجدون في كل بيئة ، وفي كل زمن ، وان تنوعت المناسبات والأحوال التي تكشف للناس عما طبعوا عليه من الغفلة .

ويلحق بأبي الغصن أناس على شاكلته لم يشتهروا مثـــل اشتهاره ولم يسمع بهم الأمراء والولاة كما سمعوا باسمـــه وخبره ، فيطلق الناس عليهم اسم جحا نبزا أو تشبيها أو تغليبا أو تفيهقا بالحكاية النادرة التي تدل على علم بأخبار السلف اذا رويت عن مشهور متقدم ولا تدل على شيء من ذلك اذا رويت عن سكان البلد في ساعتهم الحاضرة • ويعمل الوضع و «القفش» عملهما أثناء ذلك فيجتمع من النوادر الجحوية ما تصح نسبته الى شخصية قديمة أو حديثة وما تصح نسبته الى أحد غير وضّاعه ومخترعيه من الرواة والملفقين .

ونحن في عصرنا هذا قد شهدنا نشأة أمثال هذه الشهـــرة

الصحيحة والمخترعة وشهدنا تطورها من مبدأها الى مصيرها بعد عشرين أو ثلاثين سنة ، وكان « الفضل » في ذلك للصحافة الاسبوعية المضحكة التي كانت تقوم في أوائل القرن العشرين على « القفش » والملحة المخترعة ، ويعلم الكتاب والقراء والمستمعون أنها تلفيق يعتمد على أصل ضعيف ، وأنها براعة في صناعة « القفش » يتنافس فيها أولئك الصحفيون ، وهم ولا ريب خلفاء الندماء الذين كانوا يتولون هذه الصناعة في صدر الدولة الاسلامية وما يليه من العصور قبل نشأة الصحافة .

رأينا الأديب « ابراهيم الدباغ » يأكل في مأدبة فلم نلحظ عليه شيئا من النهم الذي اشتهر به بين المتندرين ، وسألنا صاحباً له فقال انها أكلة واحدة أو أكلات قليلة بعد جوع اكسبته هذه الشهرة الباطلة ، وأنت تعلم أنه كثير السخرية والاستهزاء بالادعياء من محترفي الأدب والصحافة الذين يتزاحمون على مجالس الاغنياء ، فانتهزوا « فرصة » هذا النهم الموقوت للقصاص والوقيعة وملأوا الصحف الاسبوعية « بالقفشات الدباغية » حتى أصبح « الدبغ » كلمة في اللغة الدارجة تطلق على النهم ، وقد ظلت هذه الكلمة تحمل معناها المستعار الى يومنا هذا ، وأصبحنا نسمع من يقول عن أحد من الناس أنه « دباغ » وهو لا يعرف أصلا لهذه التسمية .

وقد حكينا ما رأيناه من الشيخ الدباغ وما سمعناه من صديقه لصاحب احدى الصحف الاسبوعية التي أولعت « بالقفش » له والتلفيق عليه . فقال : « لا تنخدع به فتدعوه الى طعام ، فانما يكف الرجل يده عن الأكل وهو مشتاق اليه

ليدحض كلامنا عنه ويغرر بالحاضرين فيقعون في الشرك ، ويندمون حيث لا ينفع الندم » .

فلم ندر ــ ونحن معاصرون لصاحب الشهرة ومن شهروه بها ــ أي القولين نصدق وأي القفشات يعتمد على الواقع وأيها يستمد من الفكاهة والخيال ..

واشتهر رجل آخر في تلك الآونة بالمبالغة في الادعاء ــ أي بالفشر كما يقولون في اللهجة البلدية ــ وكان حقا يدعي ويبالغ في دعواه ، وكان ظريفا يحسن التخلص من المأزق اذا امتحن بمن يتعقبه بالنقد والسخرية ، وكان الى هذا وذاك على يسار يطمع فيه طلاب الاشتراكات للصحف الأسبوعية في ذلك الحين ، فامتلأت هذه الصحف بدعاويه وبالدعاوي المقيسة عليها مع التوسع والاغراب ، وأصبح اسمه كذلك علما على « الفشر » يكاد يلغي هذه الكلمة لولا أنها متأصلة في الأقوال والأقاويل .

فلا غرابة في نشأة النوادر الجحوية سواء صحت نسبتها أو لم يصح منها الا القليل .

وكل ما جاء في الكتب العربية من هذه « الجحويات » فلا غرابة في نشأته ، ولا غرابة فيه من كل وجه الا في التناقض بين الغفلة والتغافل في أخبار الرجل الواحد ، ولا سيما الاخبار التي تتحقق صفات صاحبها ويثبت انه من المجانين المسلوبين الذين لا يحسنون تدبير « التغافل » ولا تجيء منهم الحكمة الا فلتة غير مقصودة في القليل من الأحايين .

الخوجة نصر الدين التركي

أما جحا التركي المسمى بالخوجة نصر الدين فالمنسوب اليه يملأ مئات الصفحات ، وبين أيدينا كتاب بالتركية مطبوع في الآستانة بالحرف الدقيق (سنة ١٣٢٨ هجرية) يقع في مائتي صفحة وخمس وخمسين ولا يستوعب كل ما نسب الى جحا أو الى الخوجة نصر الدين من نوادر الحكمة أو نوادر الغفلة والبلاهة .

والأمر الذي لا شك فيه أن كثيرا من هذه النوادر وضعت بالتركية ولم تنقل عن العربية ، وأنها ترجع الى شخص عاش في بلاد الترك ولم تكن نشأته على الأقل في بلاد أخرى .

ويدعونا الى الجزم بذلك أن النوادر تشتمل على جناس يوجد في الألفاظ التركية ولا يوجد في ألفاظ لغة أخرى ، كالجناس بين جل وكل في نادرة المسامير والخطوط مع لفظ الكاف كما تلفظ الجيم في بعض الكلمات ، والجناس بين جمع أيوب وكلمة « ايب » بمعنى حبل في نادرة يحذر فيها الخوجة نصر الدين أبناء بلده من الافراط في تسمية أبنائهم باسم أيوب ، أو كالجناس في الاصطلاح على تسمية المطر بالرحمة وقولهم عن نزول المطر أنه رحمة نزلت « رحمة انيور » من عند الله .

ويدعونا الى الجزم بتأليف الترك لكثير من هذه النوادر أنها تذكر المدن والأقاليم في آسيا الصغرى وما جاورها بخصائصها المشهورة الى هذه الأيام .

ويرجح لدينا أن نصر الدين شخصية تركية غير منقولة عن الأمم الأخرى وأنه نشأ في آسيا الصغرى حيث تنتشر جماعات الدراويش الدينيين من قبل الاسلام ، وحيث يعهد في آحاد من هؤلاء الدراويش أن يخلطوا خلط المجاذيب ويفتوا فتوى العلماء والفقهاء ، وأن يلوذوا بمظاهر التخليط أحيانا بغية السلامة من بطش الحكام المغيرين على البلاد ، وقد يلوذ بهم عامة الناس ايمانا بكراماتهم وشفاعاتهم ليدفعوا عنهم مظالم الطغاة ، فيحتالون على استرضاء الظالم بالفكاهة أو بالوعظ المقبول أو بالتخليط الذي ينالون به ما طلبوه من الحاكم اذا أضحكوه واستطاعوا في وقت واحد أن يلمسوا في نفسه موطن التقوى والخوف من الله وموطن الرضى والسرور .

* * *

والخوجة نصر الدين مشهور بكراماته وكرامات ضريحه في مقبرة «آق شهر» بعد وفاته بزمن طويل، يذكر الناس أضاحيكه فيضحكون منها ولكنهم يحيلونها الى حالات أهل الجذب بين عالم الأسرار وعالم العيان ، أو يحيلونها الى حب التقية والاحتيال على الموعظة الحسنة بالأسلوب الذي يؤدي الى مرماه ويعفيه من عقباه .

والشك الأكبر انما يعرض لهذه السيرة من أطباق النوادر الكثيرة فيها على اجتماع الخوجة نصر الدين بتيمورلنك أثناء غزوته لبلاد الروم ، والمشهور أن الخوجة نصر الدين توفي سنة ٦٧٣ أو سنة ٦٨٣ هجرية ، فهو قد توفي قبل مولد تيمورلنك بأكثر من نصف قرن ، ولا يعقل أنه رآه وحضر مجالسه الا اذا كانت وفاته حوالي سنة (١٤٠٥ م) التي توفي فيها تيمور ..

ولا يسهل التوفيق بين هذه الروايات الا على فرض من فرضين : أحدهما خطأ المتأخرين في تعيين السنة التي توفي فيها الخوجة نصر الدين ، والثاني أن تيمورلنك لقي شيخا آخر على شاكلة الخوجة نصر الدين فتداخلت الروايات وعلقت البقية الباقية منها بالاسم المشهور .

وأيا كان صواب النسبة في بعض النوادر التي تحتمل الخلاف فهناك جملة من النوادر لا اختلاف في وضعها بعد عصر تيمورلنك وبعد العصر المفروض للخوجة نصر الدين ، وهي النوادر التي وردت فيها الاشارة الى المخترعات الحديثة كالبندقية وساعة الجيب، أو كالنوادر التي تكذبها وقائع التاريخ العثماني وتاريخ آسيا الصغرى على الخصوص .

* * *

ومن الواجب أن نسلم ــ بداءة ــ بوضع العدد الأكبر من النوادر التركية أو نقلها من رواة الأمم الاخرى ، لان حصولها كلها من رجل واحد أمر لا يسيغه العقل ولا يروى له نظير في السوابق التاريخية ، فلو أن هذا الرجل عاش ليخلق تلك النوادر وعاش الناس معه ليسجلوها لما اجتمع من أضاحيكه تلك المئات التي تملأ المجلدات ، ولا استطاع أن يأتي بما فيها من النقائض العقلية والخلقية ، فضلا عن نقائض الجغرافية والتاريخ ..

فوضع العدد الأكبر من النوادر أمر مفروغ منه لا يجوز أن يحتج به المحتج على بطلانها واختلاقها من أصولها ، ولعل هذه النوادر الموضوعة أصح في الدلالة على أزمنتها وبيئاتها من وقائع السجلات والأرقام .

قيل أن بين الجليل الرهيب والمضحك المغرب قيد شعرة أو لمحة عين . ولا شك في هذه الحقيقة من الوجهة النفسية كما تقدم ، لأن الهول يتحول فجأة الى الضحك بطارىء من طوارىء التغيير والتبديل التي تتعاقب في أيام النصر والهزيمة والقيام والسقوط بين الجبابرة وأصحاب الدولات .

* * *

ولا شك في هذه الحقيقة ـ أيضا ـ من الوجهة التاريخية اذا رجعنا الى عصر تيمورلنك وأشباهه في تواريخ المشرق والمغرب، فليس أحفل بالأضاحيك من عصور التقلب وعصور الشدائد والأهوال .

وظاهرة أخرى من الظواهر الناطقة في النوادر الموضوعة تنبئنا عن زمانها الذي فشت فيه وشاع اختراعها بين جميع الطبقات .

فمنذ القرن السادس للهجرة (والثاني عشر للميلاد) هبطت المعرفة من ذروة الكرامة وأصبح العارف الأريب من يحتال على رزقه بالمجون والمنادمة والتحامق والتشبه بالجهلاء وأصحاب الجدود من ضعاف العقول ، وشاع القول « بحرفة الأدب » مغنية عن القول ببؤس العالم الأديب ..

في أوائل هذا العهد ظهرت مقامات الحريري التي يجمع بطلها بين البؤس والبلاغة والبراعة في الحيلة ، وفيه تواتر النظم في شكوى الزمان مقرونة بشكوى الادب والعجب من قسمة الأرزاق ، وهذه هي الناحية الأدبية من تلك الشكايات وتلك الحيل « الانشائية » أو الفنية ، واما الناحية الاجتماعية العامة فآيتها هذه النوادر التي تعد بالمئات ولا تظهر فيها براعة اللبيب

الاريب الا في الاحتيال على أكلة أو في الاحتيال على دفع المحتالين الطامعين في قوته الهزيل .

* * *

وبين قصص جحا قصة عن تقسيم الارزاق يسأل فيها جحا من ندبوه للقسمة هل يريدون قسمة الله أو قسمة العبيد . فلما حكموه في توزيع الحظوظ بينهم على قسمة الله أعطى هذا ما لم يعط ذاك وفاوت بينهم أكبر المفاوتة في الاقسام ، وما كانت هذه النوادر لتشيع بين العامة من رواة « الجحويات » لو لم تكن لها مصادرها المتواترة من بعيد .

على أن النوادر « الطعامية » تنم على وجه خاص عن سذاجة في الحيلة ترجع نسبتها الى طوائف المحرومين من الجهلاء الذين يتأسون بذوي المعرفة والتقى ولا تسعفهم القدرة على الاختراع، فغاية جهدهم هذا الذي ابتدعوه وأحبوا تعظيمه وتحقيق الاسوة فيه بنسبته الى العارفين ، وجاءت هذه النوادر الطعامية مجاوبة للمقامات الانشائية وللقصائد المنظومة في شكوى الزمان والعجب من قسمة الارزاق ، ولم يعرف هذا كله في عصر من عصور الشرق كما عرف بعض القرن الثالث للهجرة ، وبعد ادبار الدولة العباسية ، واجتياح تيمورلنك للعالم الشرقي من تخوم الصين الى شواطىء بلاد الروم .

ونودع الآن جحا والجحويات ونحن نحمد للضاحك المضحك ، أنه أعار اسمه عامدا وغير عامد لباب من الدراسة النفسانية والاجتماعية لم يكن ميسورا لنا بغيره ، ولن يبخسه شيئا من الحمد أن يكون على وفاق مع التاريخ أو على افتراق من كل تاريخ .

كتب للمؤلف
صدرت عن دار الكتاب العربي

ابن الرومي

دراسة مقارنة رسم فيها المؤلف صورة معبرة لشخصيـــة « ابن الرومي » الذي تنازعت فيه الاهواء واضطربت محاولات التقييـم .

مطالعات في الكتب والحياة

آراء في فلسفة الحيـاة والأدب نشرت بعناوين مختلفـــة وتناولت كثيرا مما يدخل تحت هـذا العنـوان مـن الحقائـق والفروض .

مراجعات في الاداب والفنون

مقالات في السياسة والادب والاجتماع وتأثير الجمال على الحياة ، ودراسات في الفكر عن بعض كبار الادباء والكتاب

يسألونـــك

مرجع لما قيل في الأدب والفـــن والسياســة والاجتمـــاع ومقالاته أجوبة لاسئلة معينة وجهها القراء الى صاحب الكتاب

الفصــــول

مجموعة من المقالات الادبيـة والاجتماعيـة والخطــرات والشذور ، كتبها عملاق الادب بأسلوبه الواضح الغنـي عــن التعريف .

رجعة أبي العــلاء

فى ذكرى مرور الف عام على وفاة المعري ظهرت « رجعة أبي العلاء » وأحيى أديب الكنانة ذكرى أديب معرة النعمان أبــو العلاء المعري .

داعي السماء بلال مؤذن الرسول

يصور العقاد في هذا الكتاب بريشته الخلاقــة شخصيـــة « بلال مؤذن الرسول » محللا علاقته بالرسول وبالصحابةالكرام ومكانته في بداية العقيدة .

ابراهيم أبو الانبياء

في أعماق التاريخ الديني يغوص المؤلف مستقصيا كل خبر أو أثر عن أبي الانبياء ويقرن ما استخرجه بآخر ما توصل اليه علم المستحاثاة وعلوم اللغة المقارنة .

عبقرية الامام علي

السيرة الكريمة التي سجلها التاريخ على أنصع صفحاتــه وأكثرها اشراقا ، حققتها بما تستحقه من دقة وانصاف عملاق الادب العربي .

عبقرية عمر

.. ليس بسيرة لعمر ولا بتاريخ لعصره .. ولكنه الوصف الدقيق والدرس العميق ، والعرض الوافي لخصائص عظمـــة الخليفة القائد الفذ « الفاروق » عمر بن الخطاب .

عبقرية الصديق

قصد المؤلف بهذا الكتاب أن يرسم صورة نفسية للصديق أبو بكر تعرفنا به وتجلو لنا خلائقه وبواعث أعماله ، وكان همه أن تكون تلك الصورة صادقة في جملتها وتفصيلها .

ذو النورين عثمان بن عفان

استكمالا لسير أعلام الدعوة الاسلامية يحلل العقاد أدق وأخطر فترة عاشتها الدعوة بعد وفاة الرسول (صلعم) الفترة التي انتهت بفجيعة مقتل خليفة شيخ وقور سجلت حياته واريحيته وايمانه في صفحات من التاريخ لا تطوى .

حقائق الاسلام وأباطيل خصومه

كتبه المؤلف لكل معني بالثقافة ، راغب في تمييز الحق من الباطل ، فحقق به هدفا ساميا هو نشر الثقافة الدينية خالصة مما يشوبها من شبهات ويعلق بها من ريب

ما يقال عن الاسلام

جمع فيه المؤلف اشتاتا من الكتب الحديثة التي ألفها الغربيون عن الاسلام وعكف على تلخيصها ومناقشة ما يحتاج منها الى المناقشة فأضحى الكتاب مرجعا لا غنى عنه لكل مثقف

فاطمة الزهراء والفاطميون

قد يترجم لفاطمة الزهراء لانها بنت محمد أو لأنها زوج علي ، أو لانها أم الحسن والحسين ولكنها مع هذه الكرامة قد تكتب لها ترجمة لأنها هي فاطمة ولأنها مصدر من مصادر القوة

التاريخية التي توالت آثارها في دعوات الخلافة من صدر الاسلام الى الزمن الاخير .

معاوية بن أبي سفيان

لم يشأ المؤلف في كتابه هذا أن يأخذ بظواهر الاقوال بل راح ينقب وراءها عن بواطن الاهواء والبواعث الخفية التي لا بد منها في مرحلة الدولة الاموية الاولى .

المرأة في القرآن


بحث مفصل قصد به المؤلف جلاء وجوه المطابقة التامة بين أحكام كتاب الله الكريم وأحكام الواقع والمنطق والمصالح الانسانية .

بين الكتب والناس

ليس مجرد مجموعة من المقالات بل مجموعة ضخمة من البحوث القيمة في مختلف فروع الادب والتاريخ والعلوم ونقد وتحليل لما صدر في تلك الفترة من انتاج أدبي ، وما ظهر من اتجاهات فكرية عالمية ، كتاب يرقى الى مرتبة الموسوعة الادبية الفكرية بأسلوب يجعل من تتبع البحث والنقد والتحليل متعة لكل قارىء .

فهرس

طبع هذا الكتاب في مؤسسة منطورة للطباعة - بيروت - لبنان
تلفون : ٢٤١٤٧٠



هذا الكتاب

تعصب الهموم بالنفس البشرية فتنفّس عن كبتها بالطرفة والنكتة، وما يدعو إلى الضحك. وهي بذلك تنتقد نفسها وتوبّخ لامنطقيتها وقياسها. ثمّ تنشهر شخصيّة بملكة الفكاهة هذه، فيلفّق الناس لها ما وقع وما لم يقع. وبذلك تغدو تلك الشخصيّة علماً على الفكاهة وروح النكتة.

هذه شخصية "جحا" الاجتماعية، لا شخصيته التاريخية.. ففي كل أمّة "جحا" ولكل عصر "جحاه"، هذا الجحا الذي هو مقلوب "جحا" كناية عن انقلاب المنطق، حتى طبّقوه في الإسم.

والعقاد الجلد الصبور في التحقيق، والموسوعي الإطلاع في علم النفس هو خير من يكتب عن "جحا" فيعيد له "جحاه".

الناشر

الثمن ٣٠٠ ق. ل.